
رواية
مولانا السيد
حليف الشيطان

رياض القاضي



مجموعة النيل العربية

عنوان الرواية: **مولانا السيد - حليف الشيطان**

تأليف: رياض القاضي

رقم الإيداع: 25500

الترقيم الدولي: 978-977-377-213-0

الطبعة: الأولى

سنة النشر: 2017

الناشر: **مجموعة النيل العربية**

العنوان: ص.ب: 4051 الحي السابع

مدينة نصر 11727 القاهرة - ج.م.ع

التليفون: 26717134 - 26717135/00202

الفاكس: 26717135 / 00202

البريد الإلكتروني: info@arabnilegroup.com
sales@arabnilegroup.com
arab_nile_group@hotmail.com

الموقع الإلكتروني: www.arabnilegroup.com

القاضي، رياض.

مولانا السيد - حليف الشيطان: رواية/ رياض القاضي

- ط1. القاهرة: **مجموعة النيل العربية**، 2017.

192 ص؛ 20 سم.

تدمك 978-977-377-213-0

1- القصص العربية

أ- العنوان 813

تنويه 1:

لقد تم بذل أقصى جهد ممكن لضمان احتواء هذه الرواية على مادة أدبية متميزة ترتقي بذوق القارئ العربي وتحقق له المتعة الفنية مع مراعاة عدم المساس بثقافتنا العربية الأصيلة وأعرافنا وتقاليدنا العريقة، ومع هذا، لا يتحمل الناشر: "**مجموعة النيل العربية**" أية مسؤولية قانونية فيما يخص محتوى هذه الرواية أو عدم وفائها باحتياجات القارئ كما أنه لا يتحمل أية مسؤولية أو خسائر أو مطالبات متعلقة بالنتائج المترتبة على قراءة أو استخدام هذه الرواية.

تنويه 2:

إن مادة هذه الرواية والأفكار والرؤى المطروحة بها تعبر فقط عن رؤية مؤلفها وتوجُّهه الفكري والأدبي، ولا تعبر بالضرورة عن رؤية الناشر وتوجُّهه.

إهداء

إلى رجل المراحل الصعبة

الملك فيصل الأول

مقدمة لا بُدّ منها

تشعّبت الأمور في العراق حتى ظنّ أهل الباطل بأنهم على حق... ساد رجال الدّين حتى طغوا فأرجعوا البلاد والعباد إلى عصر ما قبل النهضة... بينما دول الغرب تسابقت فيما مضى من القرون في التخلص من الكنيسة وفصل الدّين عن السياسة.. ونقل بلادهم إلى مستوى أعلى وانغرزوا في متاهات التعليم متجاهلين كل أنواع الطائفية، وحققوا نجاحات في بناء الصروح الحضارية التي هشّمت أحلام رجال الدين.. أما في العراق فقد حدث العكس.. بدلًا من أن ينهض البلد بالعلم، طوّحته الأيادي في براثن التفاهات والجهل... وأصبح بلدًا يحتضن مهرّجين على أنهم ساسة، وما هم بساسة بل وصمة عار على رجال السياسة.

في مقدمة هذه الرواية فضلت أن أستشهد بآيات قرآنية تؤكد تعامل البشر مع الشياطين وأنها حقيقة لا بد من الاعتراف بها.. وهناك رجال دين يلجؤون إلى مثل هذه الأمور ويستغلون ضعفاء العقل والقلب.. وما أكثرهم الآن في شرقنا الكسول.

وتعمدت أيضًا أن أستشـــهد في مقدمة الروايـــة ببعض من أقوال الملك فيصل الأول عن طبيعة الشـــعب الذي حَكمـــهُ.. وعن عقول لم تتقبل أي نوع من الحُكّام ســـواء القُســـاة أو الطيبون.. فهان عليهم أن يفتكوا وينكّلوا برموزهم الوطنية التي تمثّلت بالعائلة الحاكمة من ملوك وأمراء، وبلا رحمة.

اليوم نرى حال دولة بأكملها لا يرتاح لها ســـوى جاهل ولا يُسر بها إلا الخائن.. في كل دقيقة تُولد بدعة، وفي كل لحظة تُســـحق روح بريئة.. حتى فاقت الغطرســـة كل شيء وانقلب في بلادنـــا كل شيء بالعكس.. فالشريف صار خائنًا والخائن ائتمنوه على وطن ضائع.

سيد سامي

شـــخصية حقيقية ولكن بدون قرين.. شـــخصية تحكي أحداثها في البــصرة «الهارثة».. حيــثُ تهافت الناس عليه مـــن كل حدب وصوب، مجّدوه وعظموه حتى باتت صوره أغلى من رغيف الخبز.. وصارت شهرته أعظم من شهرة الحاكم نفسه.

أثـــارت شـــخصيته إعجاب أهـــل المدينة حتى طُبعـــت صوره في المهفّات. وباتت مبيعات صوره تفوق صور الإمام «علي» ـ عليه السلام ـ التي غرقت بها الأســـواق والأرصفة.. وبات الناس يقصدونه في نيل الـــرزق أو لكي يُغـــدق عليهم ببعض من الحِـــرَز ليقيهم من شر الإنس وفاجعات القدر.

وعندمـــا أحضره رجـــال الأمن مكبّـــلاً بالغُطرة، أمـــام مدير أمن البصرة.. سأله الأخير:

ـ كيف قَصدكَ الناس ومن الذي صنعك.. وكيفَ برزت فجأة في وقت قياسي قصير؟

فأجاب محني الرأس:

ـ سيدي، الناس هم من رفعوا شأني.. صنعت يومًا حرزًا باطنه قصاصة ورقيــة مكتوب عليها بعض ما أملاه عقلي من كلمات ارتجالية خطرت في بالي لحظتها، مُغلّفًا بقطعة قماش أخضر.. أعطيتها لامرأة اشتد عليها المرضُ فجــأة.. الصُّدفة وحدها لعبــت دورًا في تفعيل الحرز وعندما شُــفِيت من مرضها، انتشر صيتي في أرجــاء المعمورة بفضلها.. حتى توافدَ عليَّ كبار الرجال زحفًا على الركب وأغدقوني بالمال والهدايا.

أحاول أن أشير في روايتي بأن المغزى الحقيقي هو حوار مع من يرفضون ما جاء به نص القرآن بأن المنجمين كذبــوا ولو صدقوا.. وأن الدين هو رحمة لا نقمة وأن نشر المذهب بالســلاح.. كما نراه اليــوم ليس واردًا في قانون الله.. بــل علينا أن نتقبل الآخرين كما هم وليــس كما يأمر «الولي الفقيه» تحت غطاء اللســان المعســول وكلمات رنّانة يصدّقها السُّذج ويعظمها الفاســقون.. فالعقل هدية الله إلينا يخاطبنا به، فلِمَ لا نخاطب الآخرين بالعقل بدل العصبيّة؟!.

وأخيرًا أتمنــى ألّا تؤخذ روايتــي على محمل طائفــي.. وإنما أرجو مراجعة أنفســنا بجدية وعزم، والإقبال على الأمور بعزم ورويّة، قبل أن نُهلك أنفسنا بأنفسنا والله أعلم ما في الصدور.

المؤلف

﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴾

(سورة النساء ـ الآية: 38)

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ٨ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ١٠ ﴾

(سورة الصافات ـ الآية: 6 ـ 10)

وهذه الآيات تتبع المؤمنين: يخرجون الشياطين باسمي، ويتكلمون بألسنةٍ جديدة، يحملون حيّاتٍ، وإن شَرِبوا شـيْئًا مُميتًـا لا يَضُرّهم، ويضعونَ أيديهم على المرضى فيبْرؤونَ.

(إنجيل مرقس: 16 ـ 17 ـ 18)

«إن البلاد العراقيــة من جملة البلدان التــي ينقصها أهم عنصر من عناصر الحياة الاجتماعيــة ذلك هو الوحدة الفكرية والملية والدينية، فهي والحالة هذه مبعثرة القوى، منقسمة على بعضها، يحتاج ساستها أن يكونوا حكماء مدبرين، وفي عين الوقت أقوياء مادة ومعنى، غير مجلوبين لحسيات أو أغراض شخصية، أو طائفية، أو متطرفة، يداومون على سياسة العدل والموازنة، والقوة معًا، على جانب كبير مــن الاحترام لتقاليد الأهالي، لا ينقادون إلى تأثرات رجعية، أو إلى أفكار متطرفة تستوجب رد الفعل».

«الحكومة أضعف من الشــعب ولو كانت البلاد خالية من السلاح لهان الأمر لكنــه يوجد في المملكة 15 ألف بندقية حكومية ولا يوجد لدى الحكومة نصف هذا العدد من البنادق في أي بلد من بلاد الله يمكن أن تكون حالة حكومة وشعب كهذه»

«لا يوجد في العراق شعب عراقي بعد بل توجد تكتلات بشرية خيالية خالية من أية فكرة وطنية متشــعبة بتقاليد وأباطيل دينية لا تجمع بينهم جامعة سماعون السوء ميالون للفوضى مستعدون دائماً للانقضاض على أية حكومة كانت.

علينا أن لا ندع مجالًا للأحزاب المصطنعة والصحف والأشخاص ليقوموا بانتقادات غير معقولة وتضليل الشعب وعلينا أن نعطيهم مجالًا للنقد النزيه المعقول ضمن الأدب»

من مذكرات

الملك فيصل الأول

- 1 -

في ذلك الشرق المتعب..

لا يخاف المرءُ من شيء.. بقدر ما يخاف من الإنس..

يراودهُ إحساس بأنّ الأرواح تحب النار.. حينما طغى لون الأدهم كالعقيق الأسود وبات يكتسح جدران المغارة..

ظلال تتواثب وتتراقص على الجدار من ورائه.. تارة بأنياب كالخناجر طويلة مقوسة، وساعة تتمثل في قط أسود تتوهج عيناها في ضوء الشموع.

ـ 2 ـ

قرية صفراء..

صحراء.. لم تصلها ذرة علم.

يهيم الناس على وجوههم.. باسطين آمالهم بين أيدي الدجلة.

بسطاء.. يغلب الجهل على تلك العقول الساذجة، يخلون من فقه لعلوم الحياة. ويلجؤون إلى البدع في نجواهم وتقربهم إلى الخالق.

الخرافــات لديهم شيءٌ مقدس وخط أحمر لا جــدال فيه.. ومن يلتزم بها ســيدخل الجنّة.. كما تقول اعتقاداتهم، بل وحتى الملكان ناكر ونكير لا وجود لهما، وسيزور الميت أولياء معينون في قبره ويدخل الجنّة بفضلهم.

البدع، الخرافات، الغلو.. ومن ثم الضحك عليهم من قبل من زوّروا نسل الأنبياء ونسبوا أنفسهم إليهم لكي يسهل عليهم سرقة السُّذّج باسم الدّين.

في تلك القرية النائية، تتواجد السباع، سباع آدميّة تلتهم السذج.

ســباع تحالفت مع الشــيطان، تعتاش على عقولهم البســيطة، تآخوا مع الشيطان في تحالف طويل الأمد.

- 3 -

عز الهواءُ فبدا الفضاءُ خانقًا كالحواري الضيقة.. يلتقط الأنفاس التقاطًا تتوزع عيناه بين الخلاء والشرود.. الفضاء خانق كأنه ليس خانقًا. تسري في بدنه رجفة.

صاحـــب القدمـــين المفلطحتين، المشـــققتين، كطمي جـــاف، يسرع في خطواته في الخلاء، وســـط الظلام، قاصدًا أعلى التل، في الوادي الرملي، يحمـــل بقجة، مثقلة بالزاد، اقترب بحذر مـــن مدخل الغار، كان الخوف الســـاري في أوصاله يعتصره.. لا شمس لتبدد مخاوف الظلام.. يرتعش قليلًا.. ويكاد يصرخ من طيف يطالعه في الظلام.. هل هو مجرد تخيلات تتولد من شدة الخوف؟ أم فعلًا شبح يطالعه وسينقض عليه في أية لحظة، يحاول أن يخفي ذلـــك الارتعاش، فوضع البقجـــة بسرعة أمام المدخل، ليطلق ساقيه للريح.

كأنه يخاف من أن يبتلعه حيوان كاسر، أو..؟ جن.

ـ 4 ـ

خلق الله عز وجل (سوميا) أبا الجن قبل أن يخلق ـ آدم ـ بحوالي ألفي عام.

وقال الله لـ سوميا: تمنَّ.

فقال سوميا: أتمنى أن نرى، ولا نُرى، وأن نغيب في الثرى، وأن يصير كهلنا شابًّا.

ولبّى الله عز وجل لـ ـ سوميا ـ أمنيته، وأسكنهُ الأرض لهُ ما يشاءُ فيها.

وكان الجنّ أول من عبد الله على الأرض.

- 5 -

في دائرة من الشـــموع.. التي تحيط به.. جالسًـــا.. مغمض العينين يتمتم بكلمات غير مفهومـــة.. مبهمـــة، لا يفهمها إلا الجن.. لأنهـــا لغتهم.. ابتدعوها، بعدما حرّفوا كلام الله.

رضي الرجل على نفســـه أن يتحدى خالقه الآن، بدايـــة المعصية بدأت.. ســـيتحدى قدره.. ويحقق لنفســـه الجاه والمكانة التي يطمح إليها.. لا يهم كيف.. المهم أن يكون سيّدًا بين قومه وانتهى.

ـ 6 ـ

لا صــوت إلا صرير الريــاح المُرعبــة، يجلس كشــبح مريض..أنهكه التعب.. إلا أنه ما يزال يتحامل على نفسه لإنهاء ما جاء من أجله.. عيناه جاحظتان ليس خوفًا، بل تلهفًا للقاء الجن ـ القرين ـ حنجرته تضطرب، وخفقــان قلبه بادٍ رغم الظلام الباهت، لا تكاد أضواء الشــموع تكفي لإنارة مساحة المغارة.

يتقطر من أنفه الطويل المعقوف العرق، عيناه عكرتان، كلّما سمع فحيحًا صادرًا من جوف الحيطان، يفتح عينيه وكأنّه ينتظر ظهور الشبح المرتقب بفارغ الصبر.

وبعد انتظار طويل..

أتاه ما كان ينتظر..

منخراه يتحركان من الاضطراب، العرق أغرق وجهه.

همس بصوت خافت:

ـ هل ستظهر؟

ـ لا جواب.

ـ هل سأمكث طويلًا؟

تــردد صدى طويلًا في أرجاء المغارة الصغــيرة.. هب هواء خفيف لفح وجهه المنهك.. أحس بشيء ما سيحدث..

أصبح بين اليقين والشك.

حدّثه صوتٌ من بين الفراغ:

ـ تبًّــا.. عرق الخبث.. يمتلئ به جســدك كله.. إن صمدت أمام وجهي فستنجح في امتلاك قرين.

أغمض عينيه براحة.. والعرق يزداد غزارة.

ـ رائحتك عطنة أيها السيد.

ضحــك الصوت بجلجلــة.. فانتفض الرجل من مكانــه.. فاتحًا عينيه مذهولًا، لم ينبس بكلمة..

ينتظر التالي.

ـ 7 ـ

اهتزت أرجـــاء المــكان.. وكأن الجلجلة تنبئ بظهـــور شيء مهول. أسرعت أضواء الشـــموع الضعيفة بالانطفاء، بالتوالي، وكأنها تلقت أمرًا بذلك.. حتى ساد الظلام والسكون للحظة قصيرة.

سأله الصوت:

ـ أعرفك جيدًا.. وأعرف أسرار النفس الخبيثة التي بداخلك.

ـ أنا عبدكم.

ـ وماذا تريد؟

ـ أنتم تعرفون ما أريد.

ـ نريد أن نسمع منك.

ـ التقرب منكم يا سادتي.

ـ نحن كائنات نســـتوطن عالم الخفاء.. الممتـــد من كل مكان من حولنا، لسنا مرئيين بعيونكم العادية، لكن هناك من يمكنهم رؤيتنا.

ـ الدرويش أخبرني بكل شيء.

ـ وبماذا جازيناه؟

ـ دخلتم في بطن زوجته الحامل.. فانتفخت حتى انفجر بطنها.

ـ وماذا بعد؟

ـ دخلتم في رأس أطفاله فانفجرت الرؤوس الواحد تلو الآخر.. وألصقتم ظهر الدرويش في سقف البيت، وغرزتم رمحًا في بطنه ولم نستطع إزالته فاضطررنا إلى قطم الجسد نصفين حتى يزال الدرويش من السقف.

ـ ولماذا؟

سكت الرجل ولم ينبس بكلمة.

ـ حسنًا سأجيبك رغم معرفتك الجواب.. أراد أن يتوب وقال لنا إنه عاد لرشده، فلقي جزاءه.

ساد صمت ثقيل لا يُسمع سوى حفيف ريح مخيفة ثم ما لبث أن عادت الشموع إلى الحياة وكأنها أضيئت بأمر.

حانت منه نظرة إلى الشموع، ثم ضحك الصوت وقال:

ـ المرحلة الأولى انتهت.. سنظهر لك قريبًا، وإذا ارتعش جسدك من الخوف فستعيش بقية عمرك مجنونًا وعليك غضبنا ولعنة مِنّا لن تنتهي.. عليك أن تحافظ على قرينك يا سيّد سامي، والتزلّف إلينا في كلّ شيء.

ـ أمركم مطاع.

تخلل الهواء صدره فزادهُ نشوة واسترخاء.. رغم أن الحرّ يجثم على رئتيه ببطء وتَصِلُّ رائحته الأنوف الناتجة من التعرق الغزير.

بين الساعة الحادية عشرة ليلًا والواحدة صباحًا، يظهرون فقط لأشخاص معينين.. عدا ليلة الجمعة، التي هي لحظات ابتهاجهم، يتسكع الجن في عالمنا حتى السبت، يحِلّون في عالم مرئي متقمصين شكل الحيوانات أو حشرات، كأن يتقمص أحدهم حمارًا، أو كلبًا، صرصورًا أو فأرًا.

وهناك دولة عربية تتعامل مع الأسحار، ولا يلحقون الأذى ليلًا بحيوان أو حشرة، بسبب إيمانهم المُطلق بالسحر والجن.

سكنهم القاذورات والمراحيض والأماكن الموحشة والأدوية والقبور ومواضع القتلى والمزابل والديورة. وتدخل في الأصنام وتخاطبهم.

وينهون الناس من التغوط في القزع، وهو البياض المتخلل بين الزرع، لأنه مسكن الجن.. وأيضًا الجحر ولهذا يُكره البول فيه.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

تسعة أشياء طلبها إبليس من الله لما نزل إلى الأرض مطرودًا، مذمومًا مدحورًا:

قال: يا رب، أنزلتني وجعلتني رجيمًا، فاجعل لي بيتًا.

قال الله ـ عزّ وجل ـ: الحَمّام.

قال: فاجعل لي مجلسًا.

قال ـ عزّ وجل ـ: الأسواق ومجامع الطرق.

قال: واجعل لي طعامًا.

قال ـ عزّ وجل ـ: ما لم يذكر اسم الله عليه.

قال: فاجعل لي شرابًا.

قال ـ عزّ وجل ـ: كلّ مسكّر.

قال: فاجعل لي مؤذنًا.

قال ـ عزّ وجل ـ: المزامير وآلات اللهو.

قال: فاجعل لي قرآنًا.

قال ـ عزّ وجل ـ: الشِّعر.

قال: فاجعل لي خطًّا.

قال ـ عزّ وجل ـ: الوشم.

قال: فاجعل لي حديثًا

قال ـ عزّ وجل ـ: الكذب.

قال: فاجعل لي مصائد.

قال ـ عزّ وجل ـ: النساء.

تسعة أشياء طلبها إبليس لتكون له عونًا على أداء مهمته التي طلب الإنظار إليها.. إلى يوم البعث.

- 9 -

وفي لحظة كان ينتظرها طويلًا.. صبر أكثر من شهر بلا حَمّام ولا زاد يكفيه.. ما يجلبه له زوج ابنته من أكل قد لا يكفيه نصف نهار.. إذْ كان السيد وبعد منتصف الليل يتسلل إلى مدخل الغار لكي يسحب صرّة الأكل بهدوء ويعود إلى حلقة الدائرة المتكونة من الشموع.. اشتاق للخارج وشم بعض الهواء النقي.. ضاقت نفسه ولكن جاء لشيءٍ ويجب أن يناله.

ارتجّ المكان قليلًا، ثم أعقبه ارتجاج أقوى، انطفأت الشموع بفعل الارتجاجات، بدأ التراب ينهال شيئًا فشيئًا من سقف المغارة ثم توقف الارتجاج.. ليسود السكون من جديد، كان يتبع تعليمات الكتاب الذي بين يديه، بأن يستمر في قراءة الطلاسم مهما حدث، حتى يظهر له مخلوق مخيف كالمارد، وعليه أن يستمر ويستمر بالقراءة وبلا توقف أو خوف، وسيحاول الزائر ـ القرين ـ أن يخيفه بتغيير ملامحه المرعبة، فإن خاف السيد فأمره مقضي بالجنون أو الموت، وإن صمد تآخى مع الجن وفاز فوزًا لا آخر له في الدنيا.

أخيلة الأشباح ملأت المكان، بعد أن عادت شعلتها الخافتة إلى الإضاءة، تذرع المغارة بحركات انسيابية في الهواء.. تتراقص ظلالها مع أنوار الشموع براحة غير عادية.

ثم اجتمعت الظلال في ركن واحد.. وبدأت تتقاذف كسهم ناري أمامه، ثــم تخبُت حال ارتطامها بالتراب، تبعتها الظِّلال الأخرى.. ما أن ترتطم بأرض المغارة تختفي ككابوس أسود، وكأنها لم تكن.

«احذر الخوف، سيظهر قرينك قريبًا».

لا تنسَ الوصايا.. ما أن تبدي خوفك أمامه، سيمسخك إلى كائن مجنون.

ومع قراءة حروف الطلاسم، يتصاعد حفيف الأصوات المخيفة وتشتد حدتها. وكأنّها تُعبّر عن غضب عارم يموجُ في صدرها.. غاضبة من ثبات هذا الرجل بلا خوف ولا رهبة.

عليهم أن يخيفوه قبل أن يملك قرينًا.. فأســوأ شيء أن يُســخر جنيٌّ في خدمة هذا الإنسي.

فجأة خيّم الظلام والسكون.

ثم أعقب ذلك ســهم ناري آخر، ارتطم على الأرض.. ليتحول إلى كتلة لهب أنارت المكان، ثم ما لبث أن تكوّن شكل مخيف جلس أمامه، ساكنًا.

يغيّر شكله من قبيح إلى الأقبح.

فتح الرجل عينيه.. اتسعت عيناه جاحظة للحظة ثم تمالك نفسه من غبطة النتيجة.. لقد صمد أمام الكائن وهذه آيات امتلاك القرين بلا ريب.

مخلوق يشــبه الرجل الأرســتقراطي، بملامح مرعبة، العيون عبارة عن محاجر فارغة، قبــح عجيب يطغى على الملامح، ينظــر إلى الرجل نظرة شــيطانية مخيفة، الآن بدأت ملامح المخلوق تنجلي شــيئًا فشيئًا وأصبح واضحًا للرجل بعد أن كان يتلاشى قليلًا ويظهر قليلًا.

استقر على هيئته.

ضحكة مستهترة ثم سكوت مخيف..

ـ لقد نجحت أيها الإنسي.

ـ وإني لعلى عهدي باقٍ.

ـ تخدمني وأخدمك.

ـ أنا حاضر.

ـ ابنتك.

اهتاجت روحه، تصاعدت أنفاسه قائلًا:

ـ ما لها؟

ـ لا تتردد.. أنت من اخترت عالمنا، لا نحن.. أنت من أعلن استعداده لعمل الرذيلة ولسنا نحن.

ـ ماذا تقصد؟

لقد رأيتني، وليس لك أن ترفض أي فعل نطلبه لأننا لن نرفض أي شيء تريد.. تريد جاهًا وأناسًا يُعظّمونك ويقدسونك.. لكل شيء مقابل.

أومأ برأسه يسأل التوضيح.. قائلًا:

ـ أريد أن أعرف ماذا تقصد؟

ـ ابنتك لا تحمل طفلًا من زوجها.. وبعلها متلهف لطفل يحمل اسمه، ستكون أنت من يزرع الطفل في رحم أمه.

جحظت عيناه، بل أرادتا أن تخرجا من محجريها.

ـ ماذا؟

ـ 10 ـ

ـ متى يخرج من الغار؟

ـ اليوم مساءً.

ـ هل تعتقد سينجح.

ـ أستطيع الجزم بنعم.. فوالدك غني عن التعريف.

ـ عندما أعطاه الســاحر المغربي الطلاسم.. كان أبي تواقًا جدًّا لكي يجعل له قرينًا من العالم الآخر، ولكني قلقة عليه من الغرور فأنت تعرفه.

ـ اتركيه، فصيتُه أذيع بشــكل كبير في القرية، والناس عظّموه أكثر من الإمام علي نفسه... صوره تباع أكثر من صور الأولياء في كل مكان من البصرة.

ـ يا لهذه القرية الغبية.

ـ اتركيهم فلولاهم لما عشنا... واحذري أن تتفوهي بهذا الكلام أمام والدك.

ـ فعلًا أغبياء.

قالت مستنكرة.

قالت معقبة بعينين مشاغبتين وأنفها المحبب، شفتاها كما يشتهي زوجها، ورثت عن أمها الجمال الفتّان، وطول القامة، لون بشرتها السمراء وشعرها البندقي، قروية تمتلك حُسنًا خرافيًّا عيناها واسعتان كبحيرة عسل، أنفها به طول محبب، وشفتاها وحشيتان طالما دمرت بحسنها جيشًا من الرجال.. كلماتها سريعة تنطقها كأنما تتكافأ شهية، نضرة.

ـ سارية، سأذهب إلى الغار وأجلبه اليوم، وأنت حضّري لنا العشاء.

ـ توخَّ الحذر وأنت ذاهب إلى الخلاء يا حمدان، تلقاه الآن جائعًا.. سأبعث معك شيئًا بسيطاً ليأكله ويسد رمقه، حتى يصل البيت ونأكل سوية.

- لا تقلقي.

حمدان زوجها، دُب بشري، لكن طويل القامة، على خديه آثار فصد رفيعة، وله شعيرات قليلة أسفل ذقنه فشلت أن تكون لحية، ثرثار جيد، مساعد والد زوجته ـ سيد سامي ـ الذي آوى إلى الغار ليقترن بجنّي ليحقق له مكانة بارزة بين مجتمعه الفقير.. وليبرز كرجل قوي، ذي سلطة لا تُقهر.

ـ 11 ـ

قبل ستة أشهر

جنوب العراق (الهارثة)

1927

الشمس تحرق الوجوه و الرمال وكل شيء، كان أهل القرية إذا مرضوا.. أو أصابتهم مصيبة أو حلّ عليهم غم أو هم، قصدوا بيت السيّد ـ سامي ـ لكـــي يقضي حوائجهم، بأدعية وحِرَز مطوية على شـــكل مثلث مغلفة بالقماش الأخضر.

يجلسون في هدوء في صالة الزوّار، في بيت من الطين كبير وواسع، يتكون من طابقين، 4 غرف كبيرة في الأســفل، وسُـــلّم يفضي إلى سطح الدار الشاســع، حيث توجد غرفتان واســعتان من الطــين.. البيت مفروش بأرقى أنواع السجاد الفارسي.

في صمت رهيب وبينما الفرد ينتظر دوره بين الزائرين، ليقصد مقابلة السيد، أقبلت من الخارج امرأة بجسمها البض ودخلت عليه من غير أن تنتظر ولم يعارضها أحد،

زوجة أكبر تاجر في البصرة، ذي نفوذ قوي آنذاك، كان أهل البصرة يهابونه ويحسبون له ألف حساب، زوجته جاءت تبحث عن حل ربما ـ العقم ـ عند السيّد، طاوية طول المسافات ليريحها السيد من همّها.

ألوان الجالسين في الخارج مختلفة، بعضهم كلون النحاس متسخ وهؤلاء ينتظرون في الخارج تحرقهم حرارة الشمس يستظلون بسور الدار أملًا أن ينهي السيد مشاكلهم بحرز أو دعاء، وهم من الطبقة الفقيرة، أمّا التجار أو أصحاب الحرف الأغنياء فكانوا يجلسون في الداخل.. تستطيع أن تميز الغني من ملابسه الفخمة.

المفروض الجميع جاؤوا سعيًا لطلب حاجة أو تسهيل أمر قد تعسّر.. مستعينين بواسطة من السيد لكي يُسهّل تقربهم إلى الله وأوليائه... ولكن؟

في داخل الغرفة الأحداث تخبرنا عكس ذلك.

السيد يجلس على كرسي خشبي على كتفه شال أخضر يعتمر عمامة سوداء.. أصابعهُ مزدحمة بخواتم فضيّة، وعلى جانبيه أريكتان، على اليمين تجلس امرأة، حنطية اللون، ضخمة البنيان، جسدها ليّن كأنّما حشوها سمنة، ذات ردفين خياليين، مؤخرتها رجراجة لعوب، فائقة الجمال.

كانت غرفة السيّد شبه مظلمة تُضفي الرهبة والخوف في روح كل من يزوره، دخان البخور كثيف يملأ المكان.

يتربع على الكرسي كملك.. ويمســـح صدرها بعينين ماكرتين مرســـوم على شـــفتيه ابتســـامة خبث، متحفزًا، متوترًا كلما رمقتـــه بنظرة لاهثة وحادّة، أردفت:

- زوجي يا سيدنا لا يجيد الجنس، أصبعي الصغير يريحني أكثر منه، أريد أطفالًا، وأنت تعلم بأن زواجنا دام عشر سنين ولكنه خصيّ.

كاد أن يهم بسؤالها كيف كانت تكتفي من الجنس طوال عشر سنين ولكنه عدل عن سؤاله، اقترب منها كانت عيناها تلمعان بالرغبة، ثم قال وهو يلهث كالكلب والعرق يلمع في جبينه:

- ولو وهبتك الطفل الذي تحلمين به.. ما هي مكافأتي؟

- حمّلني وسأهديك مال قارون.. فالمال عندي كالتراب.

قالت بإغراء كبير.

اقـــترب منها رويدًا رويدًا إلى أن أصبح جســـده يلامس جســـدها، أمســـك بيدها، ثم جعلها تتحســـس رقبته، حـــشرت أصابعها بين سرواله وجسده، قالت:

- سيّد ســـامي أريد طفلًا من نسل الأنبياء، أولست سيدًا وجدّك رسول الله، إذن لا تتأخر يا سيد.

ـ اطمئني وسيكون سيّدًا مباركًا.

ضمّتهُ إلى صدرها، فاخترقته، جسـدها فاجر الأنوثة، مدّت يدها تبحث عن رمح ذكورته، قبضت عليه فشهقت، ثم قالت بشهوة عالية:

ـ أراهـن بأنّ مـاءك سـيحرقني، وإن أفرغتهُ داخلي سـيُخلق منه دود ويجعلني أشتاق وأعود إليك يا مولانا.

أسقطت رداءها، اقشعر السيّد من مرأى حلمتي صدرها.

حمراوين كبثرتين.

ـ لن أعتق سلاحك الكبير بعد الآن.

وفي لحظة كانت تنخر الرجـل، والأخير يلهث، والناس تنتظر الفرج في الخارج ليدخلوا وتُستجاب رغباتهم.. جالبين الهدايا من الشاة والذهب والمال.. يطمعون في التقرب للخالق والاسـتجابة لأدعيتهم العالقة بين السماء والأرض.

أمّا في الداخل فكانا متشابكيْن.

مقام السـيّد المُعمّم في مناطق الجنوب في العراق سواء النائية أو حتى في الأماكن المتحضّرة مهيب، و له سلطة واسعة لا يعلو عليه أي صوت إن أفتى أو صرّح.. فسلطتُه خطٌّ أحمر ممنوع التجاوز والنقاش عليه.

فابتليـت المناطق التي يسـيطرون عليها بشـتى أنواع غسـل الأدمغة واحتوائها بالكامل.. عن طريق حشو الرؤوس بالمعتقدات والبِدَع.

ومع مرور الزمن باتت هذهِ التسـمية لعنة طغت على بقيّة المذاهب لأنها تأسست لغرض معين، بانت أبعادها بعد قرون.

فخرجت جماعات نسبوا إلى أنفسهم صفة أحفاد - آل البيت -.

واعتمروا عمائم سـوداء على رؤوسـهم واسـتغلوا النـاس في أموالهم وأعراضهم، وضحكوا على الملايـين، لأنهم احتووا العقول بطرق ذكية تحت غطاء الدّين، وحذّروا بل ومنعوا الناس من خوض النقاشات بهذه الأمـور، والتي تُعرف - بالتقية - حيث من يعـصي هذه التعليمات يُعتبر خارجًا عن المِلّة.

والخارج عن ملتهم مصيرُه النار.

كما سيُحرم العبد من رحمة الحسين وعلي لأنهما سيكونان كالرب يوم القيامة يُزيحان ويدخلان العبد الجنّة أو النار.

فارتعشت الأنفس واقشعرت الأبدان، وصدّقوا، واتبعوا الأقاويل والأحاديث المحرّفة وابتدعوا البدع وغالوا كثيرًا في دينهم وشعائرهم.

النقاش ممنوع، اِتّبعْ ولا تُجادل في الأمر.

وكان لظهور المعممين أثر كبير في نشر الفتن والدجل في جنوب العراق، لدرجة أنهم استغلّوا حب الحُسين وزجّوهم في ويلات الحروب تحت مُسمّيات طائفية لا تمت إلى ثورة الحُسين بأي صلة لا من قريب ولا من بعيد.

واستشرى المرض كما يستشري السرطان في البدن ويأكل الصحّة كما تأكل النار الحطب.

- 13 -

«لا عجب لأنّ الشيطان نفسهُ يُغيّرُ شَكْلهُ إلى شِبهِ مَلاك نورٍ».

ـ 14 ـ

«قبل أسابيع من الاعتكاف في المغارة»

حتى عواصف الخريف أصابها الرعب.

السماء أظلمت نهارًا واكتست سحابًا أحمر كجهنم، أمطرت السماء رملًا. تصرخ الريح حاملة في صخبها ثيابًا وأواني من النحاس والفخار، وفروع الأشجار.

من نافذته راقب ـ سيد سامي ـ شجرة الليمون تميل حتى توشك أن تنكسر في مساءٍ صاخب تعزف الرياحُ فيه أشد معزوفاتها صخبًا.

وما أن ينزل المطر الحانق تصبح تلك القرية الملعونة بالشياطين مستنقعًا يفوح برائحته الفاكهة المتعفنة. وعندما يكفّ المطر تبدو القرية مغسولة رطبة.

كان مولّيًا ظهره لحمدان وسارية، اللذين كانا جالسين حول صينية الشاي، الموضوعة على الأرض، على ضوء السراج.

قال وهو يتأملُ المنظر المخيف متجاهلًا صوت الرياح:

ـ الجن والشـــياطين تلجأ في مثل هذا الجو المُرعب إلى البيوت، وتبحث عن بيوت لا يُذكر فيها اسم الله.. يتودّدون لأهل السحر كثيرًا.

نظرت ابنته إليه محدّثةً بقلق أباها:

ـ ماذا تقصد؟ ـ فحانت منها نظرة إلى زوجها الذي كان هو الآخر ينصت باهتمام إلى والد زوجته بدهشة ـ.

ـ صوري تُباع في كل مكان، لا يحلفون بالخالق بل يحلفون بي، في التجارة وفي بيوتهم، البصرة ومناطقها المجــاورة تبيع صوري أكثر من صورة الإمام «علّي» نفسه.

ضحك باقتضاب ساخر.

ـ أبي عليك أن تحتاط من بعض الأشــخاص فهناك من ســيدّعي العِلم وسينعت كل ما تفعله بالدجل.

قالت بشيء من التردد.

انزعج أبوها بشدة من كلامها، ثم أردف:

ـ تفاءلي بالخير، لِمَ هذا التشــاؤم يا امرأة، من أين سيُولَد هذا الفارس؟ أنا السيد سامي احتطت لكل شيء.

سكت قليلًا لينشر الصمت الرهيب قبل أن يفجّر فكرته:

ـ خلوة واحدة ستغير كل شيء.

خرج حمدان من صمته:

ـ هل ستستعين بالله أم بآل البيت يا عمي؟

ضحك السيد ساخرًا ثم نظر إليه بجزع:

ـ هل الله سـيُكلّمني يـا أحمق؟ أم آل البيت سـوف ينقذونني وهم راقدون في قبورهم؟.. أراكَ تُصدّق بأن قطع القماش الخضراء التي نوزعها لهم مقابل المال كحـرز ممكن أن تحمينا من ثورة محتملة من بعض الطبقات الاجتماعية.

ـ ولكن الأمور ليسـت بهذه السـهولة، الثورة لن تقوم هنا وستفشـل بالتأكيـد، الناس قـد أكل الدهـر وشرب بعقولهم، هـؤلاء العراة والحفاة.. أية كلمات سـوف تخترق جدار أدمغتهـم المتحجرة.. ما إن أخبرتهم رؤياك بأن الإمام عليًا زارك في منامك خرّوا لك ساجدين. ـ قال حمدان ـ معقبًا.

ـ سـأخبركم قصة حدثت قبل أعوام، عندما زار سـاحر مغربي وابنته العراق، حلّوا ضيفين على الدرويش الـذي لقي حتفه، و كان أعزب وقتـذاك، وكان حينها يسـكن في النجف.. أخبره المغـربي بأن هناك كنزًا مدفونًا في صحراء النجف وطلب من الدرويش المسـاعدة.. بعد بحثٍ لم يدم طويلًا بفضل المخطوط وجدوا المكان، وفي إحدى الليالي وبالقرب من مكان الكنز جلب المغربي ماعزًا أسود فذبحهُ وأساحَ دمه في دلو وتعرّى، ثم طلب من الدرويش أن يمسح بدم الماعـز جسـده

بالكامل وألّا يترك مكانًا إلا ويمسحه، حتى في كل ثقب من جسده وبالتحديد فتحة الدبر.. وطلب من الدرويش بأن يترك الخجل جانبًا لأن الخجل في هذه الأمور سيكلف حياة المغربي.

كانت سارية وزوجها ينصتان باهتمام وبدون أن يقاطعا أو يسألاه عن شيء.. واصل السيد:

ـ تقدّم إلى مكان الكنز بخطوات ثابتة وعزم، بعد أن طلاه الدرويش بالدم، مسح كل منطقة من جسده، كان المغربي أثناء المسح يتمتم بطلاسم معينة لكي يتفاعل مع السحر والدم، قبل أن يتقدّم بشجاعة كبيرة، وقبل أن يظهر تنين مرعب يحوم حول الكنز غاضبًا غير مُرحِّب بالزائر.. يفرد جناحيه الأسودين العظيمين.. ويكنس السماء نافثًا نيرانه. وما إن رصدَ جسارة المغربي وهو يتقدّم بكل ثقة إلى الأمام.. حتى نفث عليه النار فأحرق الجسد بالكامل حتى غدا فحمًا.

ذهل الاثنان وتملكني الرهبة حتى النخاع، وضعت المرأة يدها على فمها من هول الفاجعة ولم تتمالك نفسها من الصدمة.. تبكي والدها بشدّة..«ثم سأله حمدان مقاطعًا»:

ـ لماذا تفحّم الرجل؟ أَوَلَمْ يكتسِ جسدُه بالدم؟

ـ لأن الدرويش استحى من لمس دبر الساحر، فقد خجل الغبي، وظنّ المغربي نفسه بأمان، وأنّ الدم قد غطى كل أجزاء جسمه، لكي يأمن نار التنين.. ولكن ضاع الرجل، فعادت ابنته إلى المغرب تجر أذيال الخيبة والحزن.

ـ ولكن يا أبي هل في نيّتك أن تُخرج الكنز.

ـ لا، بل أكــبر من هذا الشيء، فهذا الكنز لا يُغنيني بشيء، ولن أقبل إلا بالشيء الأكبر.. سوف أتحالف مع الجن.

قالها بصوت خشن ارتعد له بدن الاثنين، كادت أن تصرخ ولكن حمدان أسرع بوضـــع يده على فمها حتى كاد أن يكتم على أنفاســـها.. فزاح يده ببطء وحذرها من تكتم الأمر، ثم سأل بفضول:

ـ ماذا تقصد يا عمي؟

ـ حصلت على طلسم من ساحر هندي زار البصرة قبل فترة وسأجربه.

ـ ولكن يا عمي هل هذا الطلسم حقيقي؟

ـ كتاب الطلسم الأسود، زودني منه ما يكفي لكي أحقق ما أريد.

ـ أبي هل تعتقد بأن أمور الجن واقعية، أنا لا أؤمن بها.

ـ عزيزتي هل سمعت بالجن العاشق؟

قالت ضاحكة بسخرية:

ـ أرجوك لا تضحكني أكثر.

لم يهتم بسخريتها، زمّ على شـــفتيه فازداد لمعان عينيه اللتين تقطّرتا شرًّا، بات مخيفًا وهو يهم بالشرح، حتى انعكس نور السراج في عينيه، نجح في إدخال الرعب في قلب الاثنين:

ـ الجن العاشق.. هو نوع من أنواع الجن الذين يكونون تحت حُكم الملك ـ ملك العشيرة ـ ويكون نوعًا مسالمًا لكنه مؤذٍ في بعض الحالات، وحين يُعجب بالبشر، في البداية يتملك قلب الإنسي ثم عقله ثم روحه.

انكمشـــت الفتاة على نفســها واقتربت من زوجهــا ليضمها في حضنه، حانت من السيد ابتسامة خبيثة عندما رأى ردة فعليْهما، وقال:

ـ يوهــم الفتاة أو الرجل عــلى علاقة حب والحبيبــة مجهولة.. وأغلب ضحايا الجن العاشق هم البنات وقليل من الأولاد.

ـ يا رب رحماك. ـ همست بخوف ـ.

ـ قد يُعجب بصوت الولد أو بشــكله، ثم يبدأ بممارسة طقوسه معه، أما البنت فتكون حالة خاصّة بالنسبة له، يظهر لها في المرآة، يراها ولا تراه، فيعجب بجسدها وجمالها، غير أنه يعشق الفتيات ذوات الشعر الطويل ويبدأ يطاردها في الأحلام ثم النوم وأخيرًا يظهر لها.

تقدّم ناحيتهما ببطء، فانكمشــت المرأة أكثر من الخــوف، تحاول تمالك نفسها، ثم باغتها بطلبه:

ـ صبّي لي الشاي عزيزتي.

وبرعشــة يديها صبّت الشــاي في القدح وقدّمته لــه، كان واقفًا يتابعهما بصمت ورضا.. ثم أردف:

ـ على الرغم من اسمه الجذاب ـ العاشق ـ إلا أن الاسم لا يعكس حقيقة شكله قطّ.. يشــبه أقوام الهنود الحمر القدماء، ذو جسد طويل وأسود مخطط البدن بالأبيض ويرتدي الريش الأحمر على رأســه كالتاج.. ذو وجه طويل وفكّ مدبّب، وتبدو عيناه مظلمة ينفث السواد منها.

لم يكن وقع حديث المســاء المخيف سهلًا على ســارية.. فبعد أن انتهوا من الكلام، وانفضّ الجميع ليناموا، ولكي يطمئن قلبها كانت تطوف بالحجرات مصطحبة زوجها حمدان الذي تبعها على مضض، مادة يدها بالفانوس فتلقي في أركانهــا نظرات متفحصة خائفة ثم تغلق الأبــواب بإحكام، واحدًا بعد آخر، مبتدئةً من الطابق الأرضي مثنية بالطابق الأعلى، ثم تنتهي إلى حجرتها فتغلق الباب وتندس مع زوجها في الفراش، منكمشة في أحضانه.

تكــررت هذه الحالة كثيرًا، ففــي وقت الغروب عندمــا كانت لوحدها أحيانًا، كانت أشد خوفًا، بدأت تستوعب عالم الجن، أنها لا تعيش وحدها في البيت الكبير، وأن الشياطين لا يمكن أن تظل بعيدًا عن هذه الحجرات القديمة الواسعة الخالية، ولعلها آوت إليها قبل أن تولد هي في البيت.

فبدأت تدب إلى أذنيها همســاتهم، وكم من مرة استيقظت على لفحات من أنفاسهم، حتى زوجها الراقد بجانبها لم يغثها بل غطّ في نوم عميق. كانت تهرع إلى الشباك لتمد بصرها الزائغ إلى الشارع الذي يلفّه الظلام، لا أصوات سوى فحيح الرياح المخيفة، ترهف السمع لالتقاط ضحكة أو سعلة تسترد بها أنفاسها.

ـ 15 ـ

«بعد الخلوة»

كان ينتظـــر محتبيًا خلف صخرة كبيرة في الخــلاء، وقت الغروب، لينزل الليل بهدوئه المعهود. ســيخرج السيد قريبًا من خلوته، كان بدنه يقشعر وكأن أشباح الصحراء تنظر إليه بنهم. والنهار يغوص إلى قلب الأرض، ولن يخرج مولانا حتى يستقر الظلام في كل ركن، ويتسلق السماء.

رأى رغم الظلام الشـــديد شبحًا يخرج من فم الغار، بردائه الأبيض، لولا قربه من الغار وضوء القمر لباتت رؤية السيد أمرًا صعبًا.

بدا واضحًا في العتمة كلما نزل من الســفح واقترب من حمدان، أمســك بقجــة الطعام وهرع ليُقبّــل يده ويهنئه على ســلامته.. تقزز من رائحته، كانت مقززة تقتل الكلب في مكانــه. كانت رائحته قبيحة عطنة، كفاكهة عفنة، العرق السام يلتصق بجلده.

ـ جلبتُ بعض الطعام لكي تسند به طولك.

ـ غبي وهل هذا المكان يفتح الشهية للأكل.

لم ينبس حمدان بكلمة وارتأى لزوم الصمت، أسلم له من تلقّي صفعات الكلام من السيد البذيء.

كان الهواء رطبًا مُشبّعًا بالملح، ينضح ببرودة خفيفة، والسماء مثقلة بسحب الصيف، توشك أن تسقط على الخلاء.

ـ قلقنا عليك جدًّا مولانا، فحمدًا لله على السلامة.

ـ حذرتك ألّا تذكر اسم ربك أمامي مرة أخرى.

أطرق حمدان خاشعًا، وقبض الرعب روحه، لم ينبس بشيء. رائحة السيد كالخراء، كيف ستكون الحياة بعد هذا اليوم معه، هل سيحافظ على عادته أم أن التحالف مع الجن سيغير الكثير من مجريات الحياة.

ـ ستقول حمدًا على سلامتك مولاي السيد، فالجن من سيتولى أمورنا من اليوم وصاعدًا.. أنا من أتباعهم منذ اليوم.

ـ هل تقصد أنك رأيتهم؟

ـ اسمع ـ مال برأسه إلى حمدان حتى كاد أن يلتصق بوجهه، يحذره بلهجة غريبة.. مخيفة للغاية.. وقد تغيّر صوته فجأة إلى بحّة مرعبة، وكأنه صوت شبح يتكلم عن لسان السيد ـ لن تسأل أكثر مما سألت اليوم،

إن كنت تريد فعلًا أن ترافقني وتصل بسلام إلى البيت، قبل أن أفجّرك بسُخطي عليك وأفصل رأسك عن جسدك.

أفزعَتْه جدًّا نبرة الصوت المبحوحة، لم يكن قط صوت السـيد.. شخص آخر تلبسه ويتكلم بالنيابة عنه، التزم الصمت رغم الخوف الذي يكاد أن يمزقه والرجفة بدأت تلازم بدنه. ضاع صوته من حنجرته خوفًا وهلعًا، ولا يدري كيف ما زالت سـاقاه تحملانه، ربما قوى خفية من الجن تحمل ساقيه ليواصل المشي مع عمّه.. من يدري؟

ـ ماذا لديك في الصرة؟

تمتم بخوف:

ـ سارية بعثت بعض الأكل.

رفع الصرة بيده التي ما زالت ترتجف حتى توازى مع مسـتوى عين السيد، رمى السـيد نظرة سريعة إلى الصرة، ثم لاحت منه نظرة استنكار اقشعر لها حمدان.. الذي انتفض بدوره من الطريقة الغريبة التي يتصرف بها السـيد، أشاح بيده قائلًا بصوت أجش:

ـ سنأكل في البيت.

ـ سارية جهزت الحَمّام أيضًا.. لا يفوتها شيء أبدًا.

لم يتمالك السيد نفسه.. فزمجرَ بصوتٍ قطع هدوء الخلاء:

ـ أي حمّام أيها الغبي، لا حمّام لي بعــد اليوم، إلا كُل أربعين يومًا، عليك أن تعرف ذلك.

لمس حمدان لأول مرة في السيد تغييرًا مفاجئًا.. فلم يجد فيه اللين كالسابق، ولم يعهد هذه التصرفات من قبل.. الأريحية بالكلام والتودد إلى عمه كانا يضيفان إلى نفسه الطمأنينة، ولكن ما يراه الآن خالٍ من كل ود.

كانت كلمات السيد تنخره بشدّة.. وطغى بعض الخوف عليه، خصوصًا بعد أن تكلم بصوت غير صوته.. وكأن شــخصًا آخر يتكلم.. يخاف في قرارة نفسه أن يفكر بشيء، لكي لا يُفضح تفكيره للجن.. ويوشيَ أفكاره لعمه ويفتضح.. الأحســن أن يمتنع عن التفكير لكي لا يقع في المتاعب مع عمه وقرينه.

رغم الظلام الدامس، إلا أنّ المارّة كانوا كخنافس نشـــطة، يســـيرون حفاة، كانت تراقبهم من شـــباك غرفتها، متحلية بالأســـاور والحجل، حلوة كخبر مفـــرح، تمد بصرها إلى الأفق الأســـود، تُنزل قدميها عـــن الأريكة المحاذية للشباك، تنهض.. تذرع الحجرة الواسعة بقلق، تتأمل السقف الخشبي، تتمتم بأشـــياء، وربما الدعاء بعودة والدها وزوجها بخير وســـلامة، ثم تتجه بقلق إلى الشـــباك ترقب الطريق، لا ترى من تنتظر قدومهما، تمد بصرها إلى الأفق الأسود مرة أخرى، لا تكاد تميّز شيئًا، تأخرا كثيرًا.

رائحة الملح تصلها في مكانها محملة بالرؤى. أبوها اليوم سيكون سيد القرية لو نجح في خلوته، لن يزعجهم أي شخص ممن سيَدّعي الحرب ضد الجهل أو حتى وإن كانوا رجال الأمن. تحاول مد بصرها شمالًا لعلها تراهما، لكنها ما زالت لا ترى شيئًا.

ـ 17 ـ

ما زالا يمشيان حتى وصلا أطراف القرية.. دخلا في أول زقاق بصمت، لم يشـأ السيد أن يراه أحد وهو يسـير على الطريق العام.. لا قِبل له ولا شـهية باسـتقبال أحد، ففضّل الولوج في الأزقة المظلمة.. للوصول إلى البيت بسلام وهدوء.

التعب بادٍ عـلى الاثنين، جو خانق، لا هواء يتحرك، يقبض النفوس، ثم سأل السيد حمدان بهدوء:

ـ الصمت يعمّ القرية، أتراهم ناموا من شدة الحر؟

ـ يتمنون رجوعك من إيران، كما أوصيتني أن أقول، ينتظرون رجوعك لتشفي مرضاهم وتنفحهم بأحجبة الرزق والبركة.

ـ أغبياء. «همس السيد بحنق».

ثم سأل مرة أخرى باستنكار: وماذا أيضًا؟

ـ وتقذف في قلوب النساء الطمأنينة.

أجاب حمدان بخُبث رغم الخوف الذي تسلّق مفاصله.

سارا طويلًا حتى اقتربا من البيت ثم بادر حمدان قائلًا:

ـ ها قد وصلنا أخيرًا أكاد أرى شبح سارية المُنير في الشبّاك تنتظرنا.

أشار إلى ناحية الشبّاك هامسًا يكادُ يلتصق بوجه السيد من الغبطة.

ـ سـيدنا يجب أن ترتاح، فأمامك واجبات كثيرة.. ما أن يسمعوا بك قد وصلت حتى تكتظ الدار بالزيارات.. لتهديهم من فيض بركة زيارتك لإيران لضريح الإمام الرضا.

حدّجهُ السيد بنظرة احتجاج أن اخرسْ.. ولم يُعلّق على تفاهات حمدان، كان يهذر كل الطريق بلا توقف.. وقد حان الوقت لكي يسكت.

لمحت سـارية والدها من بعيد حتى نزلت مسرعة لاستقباله مشتاقة، فتحت باب الدار، تبدو مشرقة متهللة تتمايل وهي تستقبل والدها بكلمات الاشتياق أضافت لوالدها الارتياح العالي لرؤيتها بهذه الزينة. ارتمت في حضنه سعيدة:

ـ والدي اشتقت إليك.

تجاهلت رائحته الكريهة.. وحاولت أن تكتم أنفاسها دون أن تُلمّحَ شيئًا من انقباضها من رائحة أبيها، احترامًا له.

قال بعينين تلمعان من نصرٍ لطالما كان يحلم به:

ـ وهل لي في الدنيـا غيرك، ابنتي، انتهى زمن الخوف. والدك عادَ قويًّا.. أقوى من قبل.

ثم مجددًا فتح ذراعيه واسعتين وضمّها فضمته.. وقبّلها فقبّلته.. وكأن في رجوعه كان يحملُ العيد.

يوم كغيره من الأيام، لا الشــمس تنذر بها سـيقع، ولا الناس يعرفون ما تُخبئ الأقدار لهم، إلا أنهم يتكتلون الواحد تلو الآخر، بعضهم حضر لتقرأ ســارية لهم طالعهم، وأغلبهم حضروا لرؤية الســيد وأخذ البركات منه، يطلبون بأن ينفحهم الســيد بحرزٍ أمين يحفظهم من شرور الأيام والحسد والعين، والرزق والحمل.. وما إلى ذلك من الأمور التي تشغل بالهم.

رياح السموم تهب حارّة كلهبٍ مسموم، فالوقت هو الصيف.

كان كل من يدخل إلى صالة السيد التي يجلس بها لاستقبال زبائنه يشكو غيابه.. ويُظهر في كلامه مدى اشتياقه لرؤية مولاه السيد.

افتقدهُ أغلب الناس.

كان السيد يوضّح لكل زائر مهم يدخل عليه الآتي:

- الإمام الرضا.. عند زيارتي له، طافت روحه معي حول المرقد وكأني أراه «هنا فتح الرجل فاه معلنًا اهتمامه لاســتماع قصة السيد» كان يبتسم لي، يعلن عن رضاه عليَّ وعلى كل من يتبرع بالخُمس - الزكاة - في سبيل الخير،

وأنا نائم ذات ليلة زارني في منامي، كانت رؤيا تبشر بالخير، بشرني أن ما أفعلــه في خدمتكم هو عين الصواب في زمن قلّ فيه الصدق، وأهداني عباءة خضراء وقال لي: يا ســليل أحفاد النبي بلّغ شــيعتي بأنهم بخير والجنة مشــتاقة لهم.. مشــتاقة لكل من لطم من أجل «الحُسين» وأحيا ذكراه وطبّر لحمه في سبيل أن يتألم لآلام آل البيت ومصابِهم المروّع.

هنا قام الرجل خاشــعًا وصلى عــلى النبي وآل بيته ثم جثــا على ركبتيه وزحف إلى أن وصل إلى قدم الســيد وانهال بالتقبيل على الساقين.. رماه الســيد بنظرة وابتســامة ماكرة.. ربت على ظهر الجاثم على ساقيه.. ثم مسح على شعره برفق قائلًا:

ـ لقد وفيّت وكفيت ونلت رضاي ورضا آل البيت.

أخرج الرجل كيسًا من المال ودسه بخشوع وهدوء في يد السيد ثم زحف إلى الوراء حتى استقام حانيًا ظهره وغاضًّا بصره ليخرج متمتمًا:

ـ بارك الله بمولانا السيّد، بارك الله بمولانا السيّد.

حتى توارى خلف الباب.

لمعت عينا الســيد وزفر بسعادة ورضا وهو يفرك بكيس النقود.. مستمتعًا بنغماته الساحرة التي تصدرها القطع المعدنية.

كان وجهه يفور بالنفاق، ينحـــت كذبًا بتقوى مصطنعة على ملامحه أمام كل داخـــل إليه، كل من يدخل إليه كان يحمـــل عطايا يغدق بها مولاهم العتيد.. أو يجلبون له بقرة أو عددًا من الأغنام حتى أضحى السيد أغنى الأغنياء في البصرة وفي وقت قصير.

وهكذا يجد الأهالي أنفســهم يطيعون الســيد طاعة عمياء، رجل يعتمر عمامة سوداء.. ذاع صيته فجأة من دون سابق إنذار، لا يحق لهم الخوض في نقـــاش حول الدّين، ممنـــوع ثم ممنوع، النقاش ســيُخرجك من رحمة «الحُسين» يوم القيامة لأنه هو من سيُدخل شيعته الجنة حتى ولو كانوا في النار، هذه محاضرات تفّشت وباتت تُدرّس في مجالسهم إلى وقت طويل.

- 19 -

تفشّت في البصرة ظاهرة ـ سيّد سامي ـ حتى بات مقدّسًا، ومن يستهزئ بالسيد سامي يُحذّروه من مغبّة وخطورة فعلته وأنه سوف يُصاب بعجز في أجزاء جسده، وسيحيق كل من يتجرأ بسوء على السيد سامي لعنة إلهية.

وكانت صور السـيد تُباع مـن قبل الباعة أكثر من صـور «الإمام علي» نفسه.. وسعر الصورة وصل إلى مرتبة أعلى من مراتب بقية صور الأئمة المتداولة في أسواقهم.

صور كبيرة أو صغيرة تُنسـخ منها المئات وتُباع، يعتقد حاملها أنها بركة كبيرة وستبعده الصورة عن كل سوء.

وجه مسـتطيل يعتمر عمامة سوداء بشـارب ولحية تغمر نصف وجهه تتخللها شعيرات بيضاء.

من يبتعهـا يقبلها باحترام بالـغ ويضعها على رأسـه إجلالًا لصاحب الكرامات ثم يضعها في جيبه، أحدهم قال فرحًا:

ـ أقسم بالسيد سامي، ابني كان مريضًا جدًّا.. ما إن مسحت صورة السيّد على وجهه وجسده حتى اختفت الحُمّى بعد سويعات قليلة وشُفي تمامًا.

فأجابه الآخر:

ـ بركات السيّد لا غُبار عليه، جده سلام الله عليه الرسول الأعظم، لا حجاب بين السيد وبين ربّه، لقد سمعت بأن الإمام الحسين أهدى سيد سامي بركات لا تنتهي أبدًا عندما زاره في المنام.

ثم أكمل الثالث:

ـ يجب أن نحافظ عليه من الحاقدين، ولاسيما عيون الحكومة الكافرة، فالحكومة تخاف من رجال الدّين.

وابتعد أحدهم فرحًا وهو يشق بسعادة التيار الزاخر من الناس الذين يسدون الطريق بزحمتهم.

ـ 20 ـ

كان المساءُ يسيل على جسـدها. عارية كبهجة متوحشة، بيضاء كحليب البلابل. شـعرها البندقي مبلل يلصق بعنقها ويتشبث بوجنتيها. عنقها طويل كغزال. ونهداها ثمرتا تبلدي.

فردت شـعرها على كتفيها والتقطت ثوبها ثم انزلق بأمان على جسـدها ليُغطي جسدها البض.. تفوح منها رائحة الجلاد وماء الصندل.

كان والدهـا من وراء باب الحمام يقطر بالدنـس يراقب من ثقب الباب الخشـبي الصغير. يلهث ولسـانه يندلق من فمه مداعبًا بشهوة عظيمة باطن سرواله على رؤيته مفاتن سارية وصوت خفي يتلو على أذنيه:

ـ هذه الجميلة البضة التي حرمت نفسـك منها بقانون إلهي جائر.. هذه ستكون لك.. لك وحدك.. قانوننا لا حرام فيه فكل شيء فيه مُباح.

لوّثت قطرات المني رداءه، تراخت قبضته شـيئًا فشـيئًا، وعندما همّت سارية بالخروج.. ارتبك وفرّ قبـل خروجها، تراجع فاقد الصـواب، تعثّر، ليصدر صوتًا خافتًا، انتبهت سارية فظنت أنه الجني العاشق.

لملمت نفســها وأخذت حاجاتها لتخرج فــارّة مُسرعة من الحمام حاملة معها الفانوس، فتحت الباب وخرجت تركض لتخبر والدها بما راودها من مخاوف. كان جالسًــا بهــدوء يتصنع القراءة في كتــاب كبير متهرئ الصفحات يقلبه بهدوء..

جاءه صوتها تستغيث بخوف جميل:

ـ أبي.

رفع بصره بهدوء ووقــار وهو متربع كالملوك.. رآهــا بيضاء يُغلّفها النور الفضي:

ـ نعم سارية.

قالت لاهثة:

ـ كنتُ في الحمام وأحسست بأن أحدًا يُراقبني خِلسة وأنا عارية.

تبعثر وجوده.. واضطرب ثم قال بارتباك:

ـ من؟

ـ لا أعرف ربّما الجن العاشق.

هنا أطلق ضحكة عالية وبأريحية كبيرة قائلًا:

ـ وكيف لا يعشقك «قام من مجلسه واقترب منها بشهوة العاشق ووقف خلفها يكاد أن يلتحم بظهرها» لكِ عينان مشــاغبتان، وأنت بالنسبة

للرجال والجن شـــهية، نضِرة، يكســـوك جلالٌ وفتنة، ضحكتك لمعة مسروقة من القمر.

ابتسمت فبان حسنها كالقمر بشعرها الذي يسيل كالنهار المشرق، قالت وهي ساهمة في كلام أبيها:

ـ ليت حمدان يخبرني بذلك.. ليته مثلك.. ولكن عيبه لا يعرف الكلام الجميل.

ـ ابن الزانية، لا يحس بقيمة ما يملك من حسناء ـ داعب بأصابعه شعرها وقرّب أنفه من خصلاتها وشمّها بشذوذ ـ أنت الماس بل أغلى من ذلك.

استدارت برفق نحو أبيها الذي اعتدل بسرعة لكي لا يثير شكّها، قبّلته ببراءة الأطفال على جبينه ثم تركته وصعدت عبر السلم إلى غرفتها، التفت بانتعاش وحسرة إلى مؤخرتها وهي تصعد السلالم.. والأرداف تتمايل صعودًا ونزولًا.. يا لها من بضّة..

أفاق من همس الصوت الخفيّ الذي أتاهُ مرة أخرى.. فانتفض:

ـ انظر، وأشبع النظر من مؤخرتها، تخيّل كيف ستضاجعها، إنها لك، إنها لك، انتظر منّا ســاعة البدء، ولكن الطفل سيكون لنا.. نأخذه، وليس لك أن ترفض.

ـ وزوجها؟

ـ دبّرنـــا أمر التخلص منه، تحتاج إلى خادم مطيع، لا منافس على مُلكك، لا يصلح زوج ابنتك أن يرافقك بعد الآن.

هنا جحظت عيناه، فواصل الصوت الهامس بتأنٍّ:

ـ سنجعلهُ يتشبث بثدي أمل لا يدر حليبًا.

ـ لم أفهم.

ـ يريد أن يتآخى مثلك مع الشـــيطان ولكن سنضلله وستكون نهايته على يديك.

انتفض برعب وسأل:

ـ أقتله؟

ـ لا، ولكن الخلاص منه ســـيكون على مراحل وعلى يد الشيطان المولود الذي سينجبه من البيضة.

ـ ينجب جنيًّا؟

ـ سنخبرك بكل شيء بعد حين.. لا تتعجل الأحداث.. جعلناك ملكًا في قريتك، أعطيناك مُلكًا يحلم به الكثيرون، وستفوق مُلك سليمان.. أنت اليوم بالنسبة لهم كالنبي.

تلاشـــى الصوت، وانســـحب تاركًا صدى النبي يتردد في أذنيه مُصدرًا فحيح هواء مخيفًا، تركه الصوت.. في ذهول لذيذ.

–21–

الحياة يصنعها المعتوهون، اللصــوص، الوصوليون، الزناة والقوادون، تلك العجينة من القذرين، وفاسدي الشرف يقيمون أضلاع المثلث ليليًّا، حفلة للأغنياء في قصر «رفعت بيك» بمناسبة عيد ميلاد زوجه ـ حميدة ـ الجميلة التي كانت توّاقة لطفل لا يهُم من يكون أباه. رغبتها فقط في طفل يرث والده.. زوجها الأكبر منها بثلاثين عامًا.

ـ رفعــت بيك ـ يعاني من أزمة قلبية حادة، الدكتور أكد بأنّ الأزمة الثانية لن تبقيه على قيد الحياة. عليه الابتعاد عن المشــاكل لكي لا يُصاب بأزمة من شــأنها أن يفقد حياته.. لم تكن تهتم بحياته بقدر اهتمامها للمال بعد أن ترثه، كانت تحُذّره ظاهريًّا من الإفراط بالشرب، حين أكبت على استظهار نوع من الحب الظاهري أمام المجتمع المحيط بهم.

كان جو الحفلة معفرًا بالفساد، وهم يحتفلون بعيد زواجهما، «رفعت بيك» سَكرَ تمامًا، يتســامر مع ضيوفه في حديقة الفيلا الواسعة، غادرت حميدة الحفلة بعد أن ســبقها شاب بإشــارة منه إلى داخل الفيلا، وتسلل بخفة عبر السلالم إلى الطابق العلوي بعد أن تأكد من خلو الصالـــة من الخدم،

لحقته هي بعد أن تأكدت أن الجميع قد غاصوا في غمرة السُّكر، رفعت بيك ثمل يعل الكأس ويشربه يترنح بين المدعوين.. حتى أخذ مجلسه بين نساء ورجال سكارى كانوا يضحكون مرحين، فرحين بجوهم الخلاب الذي تغشّى قلوبهم بشتى عواطف الحماس والحب.

دخلت وراءه إلى إحدى الغرف المظلمة، كان مختبئًا وراء الباب.. وما إن أوصدته حتى باغتها فجأة.. بسحبها من ذراعها مُطمئنًا إيّاها بأن لا أحد سيصل إليهما، لثم جبينها.. ذلك الشاب الأسمر الأنيق، عاتبته بإغراء شرس ـ بعد أن ضمّها إلى حضنه.. تعاتبهُ ـ على المرأة التي اصطفاها عليها زوجته «صفية» ـ وكأن النساء أصبحن لديه كثمار الأرض كل واحدة منهن لها تربتها التي تتشبث بها، ولها مذاقها المثير لشهوة القضم، تغيب عنا في فصول، تقليب يحدث في الأرض والروح والرغبة.

يلثم رقبتها ويتجاهل عتابها، يعصر نهديها، يكاد يرفع ثوبها تمنعه، تحت ستر ظلام الغرفة انزويا في زاوية الغرفة.

ـ لا أستطيع التخلص منك، وكأنك تأتين في المواسم كالفاكهة، أنت أول طعم لذيذ تسلل إلى جوفي.

ـ وصفية؟

سألته مُحتجّة.

هنا عصرها من ثديها بشهوة ونار حتى لامس صدرها صدره فاشتعلت بينهما نار شــهوانية بانت حرارتها عندما تحــوّل الكلام إلى همس حارق أفحمت الاثنين:

ـ ألا تنسين قليلًا.

كانت تتكلم بكل رضا وارتياح وهو يشـــدها هائمًا بأعصاب انهارت مـــن لوعة أنوثتها التي لا ترحم، فرّت منها آهة، ظل يحتضنها وشـــم رقبتها ولثم شــفتيها حتى أفلت الزمام من الاثنين وغرقا في نشـــوة طويلة، ترتعد فرائصها من قوة دفع الشاب الأسمر، غرس أصابعه بين إبطيها وراح يشدّها أكثر وهي مولية وجهها للحائط. التفتت إليه بهدوء وتوقف هو ليثبت عينيه في عينيها.

بقبلة طويلة على شفتيه قالت بخدر عميق:

ـ أحبك رغم أني أكبرك بسنوات.

أجابها:

ـ وهل تطيب علاقتنا بدون فارق العمر.

ـ جــودت، أتعلم كم أشـــتاق إليك حتى وهو بجانبي عـــلى السرير.. مُرتميًا كالخنزير الميت.. صدّقني لا أكاد أطيق هذا الخنزير، متى ينتهي وننتهي منه.

أدنت وجهها منه فمدّ شـفتيه ولثم خدها، تناولـت ذقنه بأنامل يمناها وقبلتهُ تكـرارًا، وكأنّهما جوعى التقبيل، ثم قال محذرًا وكأنه فطن إلى أمر أهم من التقبيل:

ـ حسبنا هذا التأخير فقد ينتبه أحد لاختفائنا.

مسحت على شعره مبتسمة تطمئنه:

ـ لن تجد أحدًا صاحيًا الآن.. الجميع يترنّح وقد تجد زوجاتهم في أحضان غير أزواجهن.

انسـابا بخفة من الممـر المظلم ثم جعل حميدة تنـزل أولًا من الدرج إلى السلاملك ومن ثم إلى حديقة القصر وبعدها تبعها العشيق بخفة الغزال واندس بين الحضور.

–22–

سرعان ما فترت روح السيد سامي ولاحَ في عينيه الضيق ولزم الصمت مليًّا، كان جالسًــا في الصالة الكبيرة متربعًا على الأريكة الخشبية، وآنسَ حمدان من صمته تسليماً فقال بظفر:

ـ ولم العصبية يا ســيدنا، وماذا يحدث لو أتّبع أسلوب السحر ويكون لي جني قرين، كما لك.

ـ اسمع حمدان، لكي تؤاخي جنيًّا، فهذا ليس بالأمر الهيّن، أمامك امتحانات صعبة لتثبت جدارتك على الشــجاعة الكافية لتتمكن من الصمود أمام أشــكالهم المريعة وإلا فســتُجن حتماً وفي هذا الموضــوع لا يوجد هزل، وستُصبّ عليك اللعنة إلى أن يقودوك إلى القبر، فلا رحمة لديهم.

ـ وإذا صمدت أمامهم؟

ـ لا أعتقد «مســحهُ السيد بنظرة احتقار واستهانة، فضاق ذرعًا منه وودّ لو يقتله في الحال».

تمعن الســيد في وجه حمدان مجدّدًا وكانت فكرة جهنمية خطرت على ذهنه.. أنامله غاصت في لحيته وبدت عليــه علامات الغضب، لا بد أن قرينه كان على حق عندما حذّرهُ من حمدان.. وهذه بداية حماقة قد ظهرت من حمدان.

قال السيد بامتعاض ومكر:

ـ السـيّد كندياس، أقوى ملوك الجان، يسـانده ناصور وهو جني قوي، أي خطأ في تعويذته الخاصّة يصدر من قبلنا ولو بحرف سيسبب ضررًا جسيمًا، وأحيانًا يصل إلى الموت، أناس أخطؤوا فقتلهم الجن، اسمع يا حمدان...

مال بجذعه نحو حمدان، ففعل حمدان نفـس الشيء، اشرأب عنقه وبدأ يصغي بدقة وحذر إلى السيّد:

ـ عالمنا غير سهل.. لي صديق مغربي كان ساحرًا كبيرًا..بدأ مُنجّمًا قبل أن يخطر له أن يدخل في عالم الجن، جلس يومًا وهو عاكفٌ في الخلاء يستعد لإحضار جني، وفي أثناء خلطه البخـور، أخطأ في التعويذة حتى أصابهُ الموت خنقًا، لأن على الساحر في بعض الأحيان أن يكرر قراءة التعاويذ 200 مرة وإن أخطأ فلن يأتيه شيء، حتى ولو رقص الساحر على السُّلّم وعلى أطراف أصابعه.. والخلوة أصعب أحيانًا.. وبعد أن تجتاز اختبارهم تجدهُ أمامك على شـكل طفل بريء مسـالم جدًّا يبتسم ومؤدب، ولكن لمّا تستهين به محتمل جدًّا أن تفقد النطق ويصيبك الشلل أو أي لعنة من شأنها أن تفتك بك.

ـ إذن، عمّاه دعني أجرب، فلا ضير من ذلك.

حدجهُ السـيّد بنظرة حادّة، امتلأ حنقًا وترهيبًا.. اهتزت لها فرائص حمدان هلعًا من نظرة عمّه الغاضبة له، والذي رماه بنظرة مسـح بها أجزاء جسمه المكتنز في جلبابه الفضفاض، كقربة هائلة، لم ينبس بشيء، وفكر في صمت،

اتســعت أفكار حمدان وبدأ يُفكر بطريقة لم ترتح لها أســارير الســيّد، بل اعتبرها الأخير بأنّ حمدان قد أعلن الحرب، ولا نهاية لها إلا بالموت.

وللســيّد طموح كبير وواســع ما زال يرنو لتحقيقه، يتوسع ولن يقف عنــد حد معين، لم يفكر قط أن ما يقوم به ربما يفتح عليه نيرانًا ربّما تكون صديقة أو نيران أعداء يتربصون له بأن يهفو أقل زلّة ليسلخوه بلا رحمة.

لكنه أيضًا يملك قرينًا من الجن، اســتحوذ عن طريق السحر على قلوب أهل قريته، بل حتى اســتحوذ على قلوبٍ من كبار رجال العشائر الذين يتوافــدون إليه زحفًا على الركب.. ما أن يصلــوا باب داره حتى يبركوا ويبدأ الزحف أو الحبو إلى داخل داره، بعد أن يُفتح لهم الباب المقدس.

لــن يضحي بكل هذا من أجل تحقيق حلم حمدان المريض، ســيفكر بطريقة لكبح جِمــاح طموحه المجنون.. هذا الثور الجاثم على صدره منذ ســنوات طويلــة يجب أن يُردع.. ولكن اللوم ليس على حمــدان.. بل الحق عليه لأنه زوّجه ابنته الوحيدة، ظانًّا بأن حمدان ســيكون ساعدهُ الأيمن مدى الحياة، لا أن يُفكر في إزاحة السيد، لكي يحقق طموحه القذر على حساب الغير.

غرق في تفكيره المعهود حتى أيقظه صوت الثور الجالس أمامه:

ـ سيّد هل سمعت ما قلته؟

التفت إليه الســيد بصمــت بالغ فقط اكتفى أن يدير رأســه نحو حمدان محتفظًا بثبات جســده وأعصابه، كالصنم جالس يُطالع حمدان.. الآن..

الهمس بدأ يطنّ في أذنيه، القرين يحضر في أي وقت يشاء ولا يمنعهُ أحد، أمره الهمس أن يتلو لحمدان ما تلتقطه أذناه من تعاليم سـيمليها القرين عليه الآن بشأنه..

اعتدل السـيد محافظًا على هدوئه، فمال بجذعه نحو حمدان، رفع حاجبه باهتـمام وهمّ بقول ما يلزم قوله على ثور ابنتـه مقلصًا عضلات وجهه، وقد بان أكثر جدّية الآن:

ـ هل سمعت بقرين البيضة؟

أشار بيده لحمدان ـ أن اسكت ـ عندما همّ حمدان أن يُجيبه، ولكن السيد لم يسمح له كالعادة ثم واصل:

ـ أن يُولَد لك قرين من المني.

التزم حمدان الصمت، ليس باختياره بل جبرًا.

ـ منيّ الرجل يُحقن في بيضة، بدون كسر لئلا تفسد العملية.

* * * * *

حقن البيضة بمني الرجل سـحر مغربي قديم، مذكور في كتاب السحر الأسود الذي يُصيب بالجنون كل من يحاول أن يقرأه بدون دراية ووعي.

يحتاج ممارس هذا النوع من السحر أن يتمتع بجرأة وشجاعة عاليتين، ليتحدى الطبيعة، بحقنه للبيضة من دون أن يسبب كسرهـا لكي لا يفسد السحر،

ثم دفـــن البيضة لأيام محددة كما يشـــير في الكتاب، وبـــدون تأخير يأتي الفاعـــل في اليوم الأخير ويجد قرينًا صغيرًا لا يتعدى طوله طولَ ســـاعد اليد، بانتظاره.

إن تأخر في حضوره ينقلب عليه السحر ويكون الجني القزم عدوًّا أبديًّا له.

وإن فكّر الفاعل يومًا في التخلص من الجنّي الصغير.. عليه أن يملص رأس قرينه بدون أن ينظر إليه.. لأن الجني سيتمثل له بأشكال مروعة.. ليتمكن من الخلاص مـــن بين قبضة الفاعل والفرار منه، ويذكر الكتاب أن الجني ما يلبث أن يعود بعد فترة قصيرة لينتقم من صاحبه ولن يحول بينه وبين قتل الفاعل ذلك إلا الموت.

*****

الرجل مجرد أن يفكر بأن ينتقل عن وضعه العادي إلى ساحر، فيعتبر إنسانًا مجردًا من كل القيم الإنســـانية، ولا يؤمَن له جانـــب حيثُ يُعتبر حليف إبليس في الأرض، وهو دسيســـة على وبين خلق الله، فالسحرة لا يؤتمنون على توصيل عقيدة أو إيقاظ ضمير نائم، لأنهم وبصنع أيديهم جُرّدوا من أي عمل رحماني، وقاموا بتبديل النورانية بالظلمانية، والرحمانية بالشيطان.

وللساحر تعاون مباشر مع شياطين الجن والطواغيت منهم، وجميعهم داخل دائرة شيطانية واحدة، ورأس هذه الدوائر ـ إبليس ـ.

وعقائد العمل عديدة لدى الساحر، منها التبرؤ من عبادة أي إله إلا إبليس، ليتبرأ الساحر من الله وملائكته وكتبه ورُسله، ويُعلن ولاءه لإبليس اللعين.

وكما أن لإبليس عرشًــا يحملهُ كبار الشــياطين وهم ثمانية، وله مئة اسم تدخل في العزائم التي يقرؤها الســاحر، وله أسرار توزيع الخدمة وهي الطلاسم، وعددها مئة، وهذه الطلاسم هي همزة الوصل لكل من يدخل هذه الدوائر الشيطانية.

يذبحــون القرابين، ولا يُســمّى عليها، ويكون على نيّة شــيطانية ويدهنون أجسامهم بدم هذه القرابين، والنجاســة.. وهي التلذذ بمعصية الله عندهم عبادة. كما تدنيس القرآن عندهم عبادة.

استطاع سيد سامي أن يحرز من خلال عمله التقدم في مجال حياته، وكان كما أراد ساحر درجة أولى.. وأن يطمح في قرارة نفسه إلى الخلود، مستغلًّا الدين غطــاءً له، أوهمَ العديد بأن آل البيت هم مــن يلبون له طلبه حبًّا به لتقواه. اســتحوذ على عقول كثيرة، ولا يحلف الفرد إلا باسمه، ولم تكن المدارس في تلك المناطق النائية تفي غرضها بالقضاء على الجهل المسيطر بين أهل القرية.. بســبب برمجة عقولهم منذ الصغر على معارف وأقاويل هشّة للغاية، وأي فكر جديد يُعتبر لديهم كُفرًا وفسقًا ويعتبر من أعداء آل البيت.

ولم يكتفِ ممن يدّعون التديّن بهذا القدر من التقدم في تحريف العقول، بل ابتدعوا خرافة الأرواح التي تطوف حول المراقد المقدسة وتلتقي بالأئمة والتحدث إليهم مباشرة والبث بترهات غزت القلوب والعقول.

*****

ثورة الجهل على العقل قامت قيامتها منذ سنين ولم يردعها رادع.

وأمّا هؤلاء السحرة من الدرجة الثانية، الذين يرتبطون بدائرة شيطانية وبطريقة غير مباشرة. سحرة العمل بدون العقيدة، أي الذين يُعظّمون الأسماء الشيطانية والطلاسم التي يتعرفون عليها من خلال الكتب والمكائد ويطلق عليهم المشعوذون.

* * * * * *

وسحرة الدرجة الثالثة هم المنجّمون ـ العرّافون ـ أو الفلكيون ممن ينبؤون بالغيب، ومن يضرب بالرمل ويقرأ الفنجان.

فيقوم المنجّم بتوقع الغيب عن طريق الكواكب السيّارة والنجوم وتأثيرها على الإنسان، وهو من يُبيّن الأبراج الفلكية من: اعرف برجك.. وإلى آخره.

والدرجة الرابعة والأخيرة من السحرة:

صاحب ألعاب السيم، وصاحب من يُسمى بالقوة الخارقة، في السيرك وآكلي الجمر ومخيطي الوجوه، وقاهري العفاريت.

–23–

كانت الغادتان تجلسان في مجلس القهوة بدار «حميدة» مع «صفية» زوجة ـ جودت بيك ـ الأخــيرة كانت لماعة البشرة من شــدة بياضها، نجلاء العينين، زرقاوين تأسر القلوب بنظرتها الرعدية، فتردع أقوى الفحول، لو ابتسمت عن أسنان ناصعة البياض، وصوت كرنين النحاس.

وشت الجلسة عن عدم رضاها على زوجها ـ جودت بيك ـ ولعبت حميدة دور المــرأة التي أخذت على عاتقها حل المشــكلة، بين كل رشــفة فنجان وأخرى تفتح فاها وكأنها تســمع المشــكلة لأول مرة، وتمسح على بطنها المنتفــخ تارة بفخر، ولكن حركاتها المستفزّة لم تثر في نفس صديقتها أي ردّة فعل سلبية أو إيجابية.

صفية تعاني أيضًا من مشاكل عدم الحمل، متزوجة من سنين ولم تظفر من بعلها بوليد يغنيها عن كل شيء.

تشــكو بحرقة من غياب زوجها لأيام طويلة عنها، ومن التغيير الذي طرأ عليه فجأة، ثم أطرقت في حزن بالغ، ولازمت الإطراق كأنها أخذت سِنة من النوم،

حتى رفعت رأسها في بطء فلاح الحزن في عينيها أعمق مما قدر، ثم قالت بصوت ضعيف وكأنها تخاطب نفسها:

ـ تخيلي أتوسل إليه أن نزور الطبيب فيتجاهلني ويقول كله بأمر الله حتى توقف عن معاشرتي، وكأنه يعاشر غيري.

فوقع كلامها كطلقة نارية على نفس حميدة، فإذا بكل شيء حولها يتغير ويتبدل سريعًا، ويكفهر الجو لولا حميدة بادرت بالإسراع وغيرت مجرى الحديث:

ـ لا عليك سأفكر بحل الحمل، أعدك بذلك.

ـ كيف؟

ـ الكيف اتركيه عليَّ، دعيني أضع حملي بســلام وبعدها لن أتوانى عن مساعدتك.

صفية ســتعمل المســتحيل لكي تظفر بطفل، وحميدة يلمع الانتقام بين عينيها لتنتقم من المرأة التي خطفت عشيقها بلمح البصر.

كانت صفية كلما تكلمت أمام حميدة.. تستحضر في ذاكرتها أوقاتها الجميلة مــع زوجها.. تتكلم بحنان عنه ومعاشرته اللذيذة لها، ودّت الأخرى لو تلطمها، ويا ليت قذيفة تصيبها على رأســها بغتة فتنثرها إربًا إربًا، وتثأر بها أفظع الثأر.

كان يتوهــج في عينيها بريق مخيف تطاير من تحت جبهة عابســة مكفهرة تجمعــت في أخاديدها نذر الــشر والوعيد، كانت تودّ وهــي تفغر فاها لتطلق قذيفتها.

ولكن لســانها لم يتحرك، تُفضّل الاســتماع، التصق لسانها بسقف حلقها، كأنما جذبه إليها مخها الــذي لم يعمه العناء عن البلاء، كانت تفرغ غضبها في فنجان القهوة بالعصر واللعن في داخل نفســها تارة، تتصنع ارتشاف القهوة وهي تســتمع بآذان صاغية ما يفعلــه جودت بصفية وكيف كان يعبّر عن ودّه وهو يداعبها قبل الجماع، تتظاهر بالابتســامة والحقد يكاد يحرقهــا.. ودّت لو تلتقي به لتخنقه على السرير.. الكذّاب والأفّاق كيف يقــول ويحلف لها بأنه لا يلمس زوجته ولا يشــعر بها.. وها هي زوجته تتحسر على ما مضى من علاقات حميمــة.. هنا تعيد الفنجان إلى الطاولة وتصب قهوة أخرى وتستمع بغيظ النساء إلى صفية.

اللحظات الرهيبة كيف ستمر مع صفية؟ كسرعة الزلزال الخاطف الذي يشــعر فيه الإنسان بأنفاس الموت تتردد على وجهها لحظات ثم يعود كل شيء لمستقره.

كانت تلقي عليها نظرة مظلمة بالمقت وكأن الأريكة ترتج من تحت قدميها على أثر نبضات قلبها، اقتحمت صفية صلب الموضوع وهي تُحدّث حميدة

ما لا تطيق سماعه، تحدثها عن المعاشرة الجسدية، الحميمة، كيف لم يستغنِ لحظة ساعتها من دون أن يضاجعها بحمية الزوج الهائج كالبحر عندما يكتسح الرمال، ويضرب الساحل بدون موعد. وكيف أخبرها أنه مولع بها حد الجنون، ويتوق إلى مضاجعتها من الخلف فرفضت هي بدلال، وجعلته يهيم في حلمه دون أن ينال مطلبه.

ـ مجرمة.

رددت حميدة بحنق في نفسها.

رنت إليها صفية ببسمة لطيفة وقالت برقة وإغراء:

ـ لم يطأني أحد من الخلف.. إنه أمر قاس.

ثم فجأة تراجع رأسها في قلق كقطة أقبل نحوها كلب:

ـ وكيف سيطؤني وسلاحه كنصف ذراعي، سوف أُجن من ذلك.

شقت بضحكتها روح حميدة التي ارتعدت منها، ودّت لو انقضت على رقبتها وتكسرها.. ولكن اللقاء الأحمق الذي جمع بينهما لا ينتهي.. فواصلت صفية الكلام.

–24–

اســتدعى مدير أمــن البصرة ـ جودت بيــك ـ إلى مكتبــه الفخم وأبلغه بالانتشــار غير الطبيعي لظاهرة السيد سامي التي تفشت في ناحية الهارثة النائية ـ شــمال شرق محافظة البصرة ـ واتسعت شيئًا فشيئًا لتكون ظاهرة محلّية بين محافظات الجنوب العراقية.

حيث يسود بين الناس إشــاعات قوية بأنه ولي من أولياء الله وسماع أوامره وطاعته هو من طاعة الله، ولربما ســيدّعي بعد فترة بأنــه «المهدي المنتظر» ويُصدّقه الكثيرون وســيؤيدونه.. لأنها مناطق بدائية وانطلاء الحيل الدينية عليهم أمر سهل للغاية تحت غطاء ديني بحت. وكان المدير يتطلع على صور الســيد ثم ما لبث أن بسطها أمامه قبل أن يدخل عليه ـ جودت بيك ـ. وما إن حضر الأخير حتى زادَ مزاج المدير تعكّرًا أكثر.. وسمح للضابط الشاب بالجلوس.. لملم الصور بامتعاض وانزعاج بانا بوضوح على ملامح وجهه.. وأعطاها إلى جودت ليســمع منه تفسيرًا حول الانحلال الأمني الواضح في منطقته كضابط أمن يدير عمل معاونية أمن الهارثة.

ـ أكثر من سنة وهذا الغراب العجوز ذو العمامة السوداء يتسلطن على الناس، وحضرتك نائم، أين رجالك وأين تقاريرهم يا أفندي.

قال الكلمة الأخيرة بسخرية بالغة وواضحة ولكن بهدوء الرجل الحكيم، ازدرد الضابط ريقه بصعوبة وحرج قائلًا بحشرجة:

ـ سيدي أنا أتابعه منذ مدة ولكن لم يصدر منه شيء يدل على أنه يقوم بنشاط معادٍ للمملكة أو كلمات تسيء إلى جلالة الملك المُعظّم.

ـ يا سيد جودت.. أيها الضابط.. النشاطات المعادية ليست فقط أن تقوم على شكل سياسي مباشر، الدّين أكبر نافذة للمساس بالسياسة وأمن البلد، هؤلاء الدجلة هم أذيال دول تريدُ لنا الخراب وتُعارض قيام مملكتنا، وبمرور الزمن سيكونون أمراء تنظيم وسيكبرون مع الوقت لتطيح بنا.. الدجلة المتدينون يؤثرون على عقول تلك المناطق النائية، لا تنسَ أن إيران تتغلغل في جنوب العراق منذ أمد طويل، الشاه علماني ولكنه يعلم كيف يُدخل تنظيماته ويتلاعب بعقول الرجال، هم يزرعون عيونًا ونحن نقلعها بمرور الأعوام.. لم أستدعِك لألقي عليك محاضرة يا سيّد، ساعة من الزمن أريده هنا، أريد التكلم معه، هذا الوقح لا أعرف كيف يفكر وإن تركناه فهذا ليس لصالحنا.. نفذ الأمر الآن.

وما كان من جودت إلا أن وثب منتصب القامة مشدود الذراعين إلى الأسفل قائلًا بصوت ملبٍّ للأمر:

ـ تمام سيدي، سيكون عندك اليوم.

غــادر المكتب قلقًا.. ولكنه كيف ســيبادر بجلب شــخصية أثّرت على منطقة بكاملها؟ لا أحد يجــرؤ على ذلك لا من قـريب ولا من بعيـد.. كيف يرفع عينه ويلصقها بعين السيد الذي يغدقه بالخيرات، علاوة فالسيد تغلغل وأصبح كإله على الأرض ويُقدّس بين الناس أكثر من أي شخصية دينية أخرى.

فكيف ســيقبض عليه.. ويحفر بيديه نهايته كضابط، لأن أهل القرية لن يرحموه على جريمته، وســيلقي بنفسه في أتون المعركة بدلًا من أن يعيش بسلام بينهم ويتمتع من خيراتهم.

ثم غمغم وهو يفتح باب السيارة بنبرات نمت عن اليأس:

ـ والهدايا التي تأتيني كل يوم؟ وشيوخ المنطقة الذين عاهدتهم على حماية مصالحهم في المنطقة؟ مجنون حضرتك أيها المدير.. ولكن لك ما تريد.

تنهد بحيرة مسموعة وقلق فإن لم يتصرف بحكمة في هذا المأزق العظيم، فستكون حياته في تهلكة إلى ما شاء الله.

–25–

لن يســتطيع أن يعتقل الســيد بنفســه، فهو لا يريد أن يفتح على نفسه نيرانًا صديقة من العشــائر الجنوبية المؤيدة للسيّد، والأفضل إرسال أحد الضباط لإتمام المهمة ذلك أسلم حل.. وإن تأزمت الأمور فسينكر علمه بالأحداث ويكون في مأمن من شرّ الأهالي والشــخصيات العشــائرية ورجال الدّين.

وفعلًا كلّف جودت ضابطًا شجاعًا لهذه المهمة.. شاب في الخامسة والعشرين قــوي البنية يمتلك ثقة عالية في النفــس، فاغتبط بدوره لإناطته بهذه المهمة من قبل الآمر ـ جودت بيــك ـ الذي طالما انتظرها بفارغ الصبر، وهو إلقاء القبض على دجال استولى على نفوس الناس بشعوذاته بمكر ودهاء.

فسِلك النظام هنا منتثر.. ولكن من سيظفر في النهاية؟

فلا قانون يردع هذا السيد، لأن لا أحد من رجال الدولة فكّر بأن يردعه، على العكس هناك من تهاون معه وباع نفسه لعطايا السيّد المُغرية. اشتروا الدناءة وباعوا القانون.

الناس باتت تؤمن به أكثر.. تحتفظ بصوره كرجل مقدس.. ممنوع لمســه دون وضوء.

تحــرك غضبه الباطنــي وسرى في شرايين دمه.. يكادُ أن ينفجر من شــدّة العنف على الســيد المُقدّس.. إنه يؤمن بقتل رجال الدين كما فعل أتاتورك عند إقامته الدولة التركية العلمانية الخالصة.

نعم هم من يقصدهم الله في القرآن ـ المُفسدون في الأرض ـ.

وكانــت في هذه اللحظة قد انطلقت ثلاث ســيارات، مفرزة مكوّنة من عشرة أشخاص وكانوا متحفزّين لأي طارئ.

رجال الأمن من بينهم الضابط الشــاب كانوا يرتــدون ملابس مدنية، حيثُ كانت ســياراتهم تمر بسرعة خاطفة من بــين بيوت الطين.. ليولّد الرعب في نفوس الأطفال والنســاء ويُهرعــون للاختباء في بيوتهم، بينما تخلف السيارات المسرعة وراءها عاصفة رملية هائلة..قبل أن يصلوا إلى بيت السيد وتهدأ العاصفة الرملية التي خلفتها عجلات السيارات.

توقفت الســيارات بشــكل عشــوائي على مقربة من بيته، كانت الدار مزدحمة بالزائرين ينتظرون في الخارج، بسبب أن عدد الأشخاص داخل الدار لا يسمح بدخول آخرين، الزائرون كانوا ينتظرون في طابور طويل ليحصلوا على الإذن ويدخلوا على مولاهم العتيد.

شــخصيات حاضرة في ديوان الســيد، من وجهاء عشائر، ومن طبقات مختلفة من الشعب، ويُلاحظ ذلك من خلال عربات الخيول الفاخرة التي تنتظر أمام بيت السيد. كل من جاء يُقابله إمّا ليبث شكواه إليه ويتوسط لدى الســيد لنيل رضا الله والتبرك عنده، أو يزوره حُبًّا لشخصه كرجل

دين مبارك به ولينفح السيد بالعطايا والهدايا، أو سعيًا للحصول على حرز حسب الطلب ونيل رضا آل البيت في نفس الوقت.

عندما رأى الجمهور حضور مفرزة الأمن تنبؤوا شرًّا من مقدمهم، فمثل هذه الزيارات عادة لا تنتهي على خير أبدًا، بل يضمرون الشر كعادتهم على رجال الدين، ولاسيما أن أهل القرية يعلمون بأن السيد سامي بات مصدر قلق للدولة.

وقد حان الوقت للجهر بالعداء لهذا السيد. ولكن هيهات ثم هيهات، تكاتفوا ليكونوا جدارًا يمنعون رجال الأمن من دخول الدار.

فاختلطت تياراتهم، الصغير والكبير والفقير والغني معًا لحماية مولاهم.

ساد الصمت المخيف الذي ينذر بشر لا حدّ له سوى الموت أو الانسحاب.

وقف الضابط أمامهم بحنق، وأخذ يحدّجهم بنظرات غاضبة على هذا العصيان المفاجئ. صاح بهم بلا جدوى، سمع صدى صوته يتلاشى مع الجو، فأدرك أنهم مجتمعون على عقيدة يصعب تفريقها حتى ولو بالسلاح.

حاول أن يجرب معهم أسلوب الحوار المُتمدّن ففشل، ضحكوا عليه وسخروا من سماجته.. قالوا له ـ روح العب غيرها ـ.

أراد أن يقنعهم بأن السيد سيحلّ ضيفًا كريمًا ويكون بأمان ولا داعي للقلق.. وأن ما يفعلونه ضد شرعية المملكة وعصيان مدني يُعاقب عليه القانون الملكي، ولكنه لم يجد غير زيادة في غضبهم من خلال الأعين الصامتة التي تقدح شرًّا ونقمًا على رجال السلطة.

حتى قطع الصمت صوت صرير وانفراج الباب الخشبي ليظهر السيد من خلفه بهدوء.

رماه الضابط بنظرة تدل على الحقد.. نظرة متقهقرة بعض الشيء، لا معنى لها سوى الهجوم والانقضاض على هذا الشيطان.. ولكنه لن يستطيع فعل أي شيء بسبب الأهالي الذين يتزايدون شيئًا فشيئًا لحماية مولاهم.

وقف الولي الآن بمسبحته الطويلة خلف الناس، هادئًا لا يُصدر صوتًا سوى صوت الأصابع التي تناجي المسبحة.. بينما الضابط كان يقذفه بنظرات ثاقبة ومريبة وقد عبس وجهه وتطايرت من قسماته نار الغضب من خلال صفحته المكفهرة، ابتسم السيد فجعل يردد بصره بين الضابط وبين الجموع بهدوء ظاهر ومكر دفين.

انتبه الناس إلى الضابط الذي حاول اختراقهم ولكن عبثًا يحاول، سدّوا الطريق بأجسادهم ولوّح من كان يحمل سكينًا أو عصا بأيديهم عاليًا، كإنذار للضابط على أن ما سيقوم به لن يمر بسلام.. سيدافعون عنه حتى لو وصلت الدماء إلى الركب.

دفع الضابط أحدهم ليخترقه نحو السيد وما لبث أن صاح أناس لا حصر لهم:

ـ يريد اعتقال السيد امنعوه..

ومنهم من ردّد: اقتلوهم.

وسرت في المتجمهرين حركة عنيفة، حتى أسرع رجال الأمن لحماية الضابط، الذي ما لبث أن أمرهم بإخراج أسلحتهم، تمتم على مسدسه ثم صار يصيح بحزم كأنه استمد شجاعتهُ من وجود سلاحه:

ـ إن لم تعدلوا عن غبائكم فسوف تندمون، أنتم تتحدّون القانون، أكررها لا تتغابوا وستشقوا طوال حياتكم على تصرفكم.

سرت في المتجمهرين هذه المرة حركة عنيفة، فأقبل متحمسون من كل صوب ملوّحين بالعصي والسكاكين والمراكيب حتى ارتعد الضابط وانسحب بين مجموعته بحكمة، وأصبح بينه وبين الغاضبين مسافة طويلة.. فرسخ عنه بعض الحماسة التي كان يتمتع بها حين أتى ليعتقل الرجل.. ولكنه نجح أن يجمع جأشه ويصمد أمام هذا التيار العشوائي من الناس الغاضبين، دارت عيناه فيما أمامه يبحث عنه، فلمحَ وجه غريمهُ السيد.. الذي وقف بثبات وشجاعة خلف الحشد، كانت عينا الضابط تفوران بالغضب والبغضاء، حتى تقدم بحركة غريزية وصوّب مسدسه وأطلق رصاصة نحو الهواء وهو يصيح بصوت جهور:

ـ الرصاصة الأولى ستكون في السماء، أمّا الثانية فسأصوّبها في قلب أحدكم.

ارتعد البعض.. وثبتت الأغلبية على عنادهم، ولكن في النهاية لم يجد الضابط من المتجمهرين من يتراجع عن عناده، فاستفزّه تصرف الناس.. فغضب بشدّة حتى ساد صمت فجأة.. حتى قطع السكون صوت السيد:

ـ دعوه ـ صاح بحنق ـ هؤلاء جاؤوا يقصدوني فدعوني أتفاهم معهم قبل أن تُراق دماء أبرياء.

تجاوبت في أرجاء المكان دمدمة غاضبة، تعالى الهتاف هنا وهناك «ليسقط أعداء آل البيت» وصاح غيرهم «أدّبوا أولاد الزنى»، «الكفرة أحفاد يزيد».

عندئذ تقدم السيد شاقًّا صفّ الحشد الغاضب، واثق الخطى ثابت الإرادة، رغم محاولات سـارية منعه من التقدم بجذبها وشدها لذراع والدها الذي نحّى سارية جانبًا.. ظلّت تمسك به، حتى تجاهلها ونفض يدها عنه.. كانت تحاول منعه من التقدم ولكن محاولتهـا لم تثمر في صد والدها عن التقدم، فسحوا له الطريق، وتقدّم نحو الضابط بعينين ثاقبتين.. تُركزان على وجه الضابط بحدّة، رمشـت عينا الأخير وكأنه ينظر إلى شعاع الشمس، فرك عينيه وما إن كفّ عن الفرك وفتحهما.. حتى انتفض من مكانه عندما رأى السـيد ثابتًا أمامه كالصنم يثقبه بنظرات جليدية، هنا تغيّر الموقف، بادره السيد بقوله:

ـ أنا جاهز لأحضر التحقيق أيها الضابط.

ـ أ... أ.. السيد المدير طلبك وعلينا تنفيذ أوامره.

ـ حسنًا ما دام هذا ما يطلبه سيّدُك فأنا قادم.

لكـن الغضب بلغ بالناس مداه، شـكلوا على هيئـة نصف حلقة حول الاثنين وهـم يتدافعون بالمناكب وكأنهم يتأهبـون للهجوم كأكلة لحوم البشر عندما يثيرهم قطعة لحم نيئة.

كانـوا يتوعـدون الحكومة والضابـط شرًّا.. في حال لـو حصل مكروه لمولاهم، فأطلقت أصوات السـيارات عاليًا كالهدير قبل أن تنطلق مُرحبةً بالنصر.. والناس يهتفون ملوّحين بأيديهم:

ـ علي وياك علي.. علي وياك علي...

وبعزم لا يُقهر رفع يديه وهو يزعق بالجمهور قبل أن يستقل السيارة:

ـ اســمعوا يا شــيعة علي الكرام، هو عبدٌ مأمور، والمدير له كل الحق أن يحقق معي، ولا تنسوا أنهم علمانيون وعقولهم ليست بمستوى عقولنا التــي كرّمنا بها الله بحب الدين وآل البيت، ولا بد أن هناك من أبلغهم بأنني مشــتبه به، وعليه ســوف أذهب وأقابل المدير وأحل المشــكلة ولست قلقًا لأنني أعرف أنكم لن تتركوني. «قال الجملة الأخيرة وهو يحدج في عين الضابط متعمدًا كرسالة تحذير».

بهذا أنهى حديثه الخطابي، حتى ساد الصمت المرير، وأمر السيد بالناس أن يفتحوا الطريق لكي يتســنى للســيارت التحــرك. الصمت وحدهُ الطاغــي في هذه الســاحة، وأيضًا طغى الصمت الثقيــل على الضابط بعدما كان مليئًا بعزيمة الرجال، ولكن لم يكن يتصور مدى خطورة هذا الرجل ومدى اســتماتة الأهالي لإنقاذه.. حينها أدرك الضابط بأنه أمام رجل ذي نفوذ والوقوع عليه مؤذٍ.. كالرجل عندما يقع على كومة حديد وتتكسر أضلاعه.

ـ هيا أيها الضابط أنا مستعد.

وببطء غــير معهود أمر الضابط مجموعته بالمغــادرة.. متجهين نحو مقر مديرية الأمن العامة في هدوء غير مرحّب به من قبل الجميع.

كان المســـاء يزحف في خطوات حاسمة غاشيًا الطرقات والأزقة والمآذن والقباب، حين أُحضِر الســـيد إلى المديريـــة، وبالتحديد إلى غرفة المدير.. التي كانت محاطة بهالة من الأضواء زادت من المكان رهبة وجمالًا.

ولعل المدير لم يعدل بسروره بهذا المســـاء، الذي قلّ أن يُرى بها مسرورًا، إلا زهوه بإحضار سيد سامي له، كأنّه صيدٌ طال انتظاره.

مثُل السيّد أمامه، لم يســـمح له المدير بالجلوس حتى على الأرض، وكأنه يتلذذ بإهانة السيد، فلم يردّ حتى على تحية الأخير له.. بل قذفه بوابل من الأســـئلة التي لا حصر لها.. ففوجئ بها السيد ولكنه أجاب على كل شيء بـــذكاءٍ وأدب.. وبدون أن يثير أيضًا غضب المديـــر العارم عليه، يتلمس أثر ردة فعل أجوبته في وجه المدير، ويتهيأ للسؤال الأقذر.. فليس لهؤلاء الأوغاد سؤال شريف ومحدّد.. الكل أولاد زنى.. حتى هذا الثور الكبير برأس التيس لا يقل عن السفلة بشيء.

ـ إذن ما رُوّجَ عنك تعتقد أنه إشاعة.

ـ سـيدي المدير أنا معروف في الهارثة وأنحائهـا.. وتقريبًا أكثر مناطق جنوب العـراق يعرفونني.. وزياراتهم شيء طبيعـي لي.. ومثل هذه المظاهـر تراها حاضرة في النجف وكربلاء، فـما الغرابة أن يكون بيتي مركز زيارات الأحباء والمُخلصين؟.

شدّ المدير قوس حاجبه ثم قال محتجًّا:

ـ مظاهـر عادية؟ صورك تُباع في الطرقات وفي الدكاكين.. الناس تحلف بك، وقد وضعوك في منزلة النبي وتقول مظاهر عادية.

أحنى السيد رأسه مغمغمًا:

ـ أستغفر الله .. وما بيدي أفعله لهم.. أمنعهم سيدي المدير فأنت القانون هنا وتعرف أكثر مني بهذه الأمور، هل تظن بأنني سعيد بذلك؟

ـ بالطبع أنت لسـت المسـيح.. ولا حتى نبي، ولكنـك انتشرت بينهم كمرجع ديني وتكاد أن تبلغ مراتب أعلى.. من يدري.

هنا احتدّ صوته واشـتعل الغضب بداخله شـيئًا ما، ولكن السـيد كانَ يحافظ على هدوئه وابتسـامته وكأنه يتكلم مع صديق قديم.. وتعامل مع الموقف بأريحية تامّة:

ـ كل شخص حُرٌّ في تقديسـه لمن يُجلّ ويحترم ما داموا لا يؤذون أحدًا.. إذا كانوا يريدون ذلك فهذه هي درجـات عقولهم.. إنهـم مُخيّرون.. لو كانت

لديهـــم ذرّة عقل لأيقنوا أني بشر عادي والواســطة غير مطلوبة بين العبد وربه.. وأنــا نفسي لا أضمن إن كانت دعوتي مســتجابة أم لا، وفي نفس الوقت لست ساحرًا أو أفاقًا، أنا رجل بسيط لا أبغي سوى العيش الكريم.

داخل السيد سرور ماكر، لاحت في عينيه الحكمة والدهاء، ركز في عيني المديــر بهدوء وأدب حتــى احتار المدير في اختيار كلامه، فكلام الســيد منطقي ولا شيء يدعو لأن يعتقله أو يهينه، ولربما بمرور الزمان ستنجلي أشياء لا يعرفها بعد.. ولكن كل شيء في وقته مُستحب.

لاذ بالصمت الآن، فمضى يسأل والســيد يجيب بذكاء.. وينجو من فخ الأســئلة بمهارته، وكان يجيب بلا تلكؤ وبكياسته المعهودة، رغم الحقد الذي يهيج بداخله على المدير..

الحديث دار في جو مشــحون، مع العقيد حاجم الذي لا صلة له بالتدين لا من قريب أو من بعيد، كان شعاره:

«الخمر والنساء».

أمّا الدّين ورجاله فكان يمقتهم بشــدّة، وعندما حلّ سيد سامي عليه في هذا المساء الهادئ، كان في ودّه لو لديه صلاحية إعدامه.. بل وإعدام كل رجال الدين على الفور.

فجأة سمح للســيد ســامي بالجلوس.. تغيّر موقفه وأظهر بعض اللّين معه؟ رغم ما يجيش في صدره من حقد عليه.. وما دام الإعدام مستحيلًا

فلماذا لا يحاول كسبهُ إذن، ألف صديق ولا عدو واحد، فهو قد خَلق لنفسه هالة وقدسية عظيمة بين الناس.. وليس ببعيد أن تتفوق قدسيته بعد فترة من الزمن على قدسية الملك نفسه.. ويتحقق الانقلاب الديني على العلمانية فتفسد الدولة ويتوه العباد.

وسيسمعه الجميع.. وستكون مناطق الجنوب تحت تأثير حركته الدينية وسينجح في تجييشهم لو أراد ذلك.

وهكذا سينجح في قلب الشعب على الحكومة الملكية بالتعاون مع جهات معادية.. فهناك أعداء يتربصون لمستقبل العراق ولا سيما أن الحرب الباردة قائمة على الملك.

*****

رجال الدين في العراق أغلبهم يُعدّون مرجعيات، ولهم كلمة حادّة كالسيف يغير الواقع الجنوبي للعراق في ليلة وضحاها.

لو يُعتقل هذا السيد الآن، فهذا سيكون الغباء بعينه.

حينها سيخرج أكثر الجنوبيين، لنصرته، فهو بعينهم «السيد سامي» ـ قدّسَ سِرّه ـ حفيد آل البيت كما يدّعون، وتركه بلا مراقبة هو الغباء بعينه، ولا سيما أن عيون الأعداء يبتهجون بهكذا مظاهر باتت تسود في أرجاء المملكة وسيدعمون كل ما يخدم مصلحتهم.

اتقاءً لتكدير المدير قال السيد:

ـ سيدي، أرجو أن تُعلمني إذا أنا أخطأت شيئًا، وجلّ من لا يسهو، فالزائر الذي يأتيني إمّا يأتي لفتوى أو لحل مشكلة من مشاكل الحياة التي تكدر صفوهم.. ويعلم ربّ السماء أني كنت منصفًا في كل شيء وخادمًا أمينًا للكل، ولا أطمع إلا بالآخرة.

لاح في تقارب حاجبي العقيد حاجم صيغة مناسبة لأول مفاوضة حتى قال دون تردد:

ـ حسنًا، ولكني أريدك في الوقت نفسه أن تكون عينًا على أمن الوطن وعينًا ساهرة ضد كل من تسوّل له نفسه المساس بشخص الملك.

رفع السيد حاجبيه وسأل:

ـ كيف لا.. وهل تعتقد أنني لا أفكر بذلك؟ ولكن سيدي المدير هل هناك شيء ما أضرّ بأمن المملكة؟

ـ لا، والأمن موجود ومستتب.. ولكن كما تعلم فالغرباء يستغلون الأهوار هربًا من شاه إيران ويدخلون أراضينا بشكل غير قانوني.. نريد منكم توجيه أتباعكم بإبلاغ السلطات عن هذه الخروقات.. وتبلّغون أيضًا الجهات الخاصة كل شاردة وواردة من شأنها أن تقع.. وأن تُبلّغ حوزاتكم عن رجال الدين المندسين والقادمين من إيران إلى المملكة بدون أوراق رسمية.

ـ تأكد سيدي المدير بأنني سأكون أول من سيبلغ عنهم فأنا ضد كل من يحاول الإساءة للمملكة.

بهذا الحديث خُتم اللقاء وغادر السيد بعد أن مدّ يده للمدير الذي صافحهُ بدوره.

******

كان البلد عند تأسيس الإنكليز الدولة العراقية الحديثة غير مستقر تمامًا، بسبب ثورة العشرين التي قامت بها عشائر الفرات الأوسط وبدفع من رجال الدين من أهالي الجنوب بأنفسهم، فوقفت القيادات الدينية ضد أغلب الإجراءات الضرورية لبناء الركائز الأساسية للدولة الوليدة، الفتية، وذلك باتخاذهم مواقف متشنجة ومتشددة ضد السلطة، فوقفوا ضد المعاهدة البريطانية ـ العراقية التي ما كان بالإمكان الاستغناء عنها في تلك الظروف القاهرة، وإلا لقامت تركيا بإعادة احتلال العراق، أو على الأقل إلحاق الموصل بها.

وفي عام 1922 نشر المجتهدون من رجال الدين في جنوب العراق فتوى عن الانتخابات ورد فيها:

«صدر منا تحريم الانتخاب في الوقت الحاضر لما هو خفي على كل باد وحاضر، فمن دخل فيه، أو ساعد عليه، فهو كمن حارب الله ورسوله، وأولياءه، صلوات الله عليهم أجمعين».

وقد طرد الملك فيصل الأول وقتها شـيخ الشريعـة الأصفهاني وآية الله النائينـي والخالصي وكبار المراجع الفرس المشـاغبين مـن النجف عام 1922 إلى قم.

حيث لم يوافق جلالـة الملك على عودتهم حتى طلبوا العفو عام 1924، فسمح لبعضهم أن يعود شرط احترام القانون.

وكان من الضروري للملـك فيصل الأول أن يفعل ذلك في بداية عهده لتركيز احترام الدولة والقانون.

وشكل تأسيس العراق الحديث لموقع إيران في الخليج العربي ولمصالحها الاقتصاديـة في المنطقة توترًا كبيرًا.. وسـعت الحكومة الإيرانية دائمًا إلى الحفاظ على تأثيرها في هذا البلد، وتعكير الشؤون الداخلية العراقية.

والحق أن إيران كانت تحاول باستمرار إضعاف العراق وتتمنى لو تجهض أي محاولة لتأسيس جيش وطني عراقي.

وفي عـام 1925 ربطت الحكومة الإيرانية اعترافها بالعراق بقضية حماية العتبات المقدسة لكن عامل الزمن والدعم البريطاني كان ضدّ إيران.

وهكذا كان جهاز الأمن قلقًا من ظهور أو صعود شخص قد يكون مموّلًا من الغرب أو من أي جهة أخرى معادية لتغيير مسار السياسة في العراق وربطها بالدّين.

–27–

ـ حسنًا كل شيء يبدو طبيعيًّا، بدأ التمدد.

قالت القابلــة، كانت امرأة جميلة قصيرة القامة ونحيفــة، ترتدي رداءً طويلًا، وكانت حميدة تخفي وجهها بين الوســائد مع كل تقلص، لكنها لم تكن تبذل أي جهــد، كان الاضطراب ســائدًا فأيقن «رفعت بيــك» من وجوب إحضار الطبيب.

الدقائق تمر ببطء مثير للغيظ، لا يُسمع سوى صراخها وغمغمات خافتة، كان «رفعت بيك» يسأل الخدم فيما لو أن سائقه وصل مع الدكتور أم لا؟

وفجأة وبعد أقل من ساعة تقريبًا سُمع أحد الخدم ينادي من باب القصر:

ـ بسرعة لقد وصل الدكتور.

يدخل الدكتور مسرعًا، أخذ رفعت بيك على عجل ليقوده إلى غرفة النوم، ثم قال رفعت بيك وهو يلهث من الاضطراب، كفريسة لهياج غريب:

ـ لقد بدأ الأمر يا دكتور.

ـ هل تشعر بآلام؟

ـ منذ أكثر من ساعة، كل دقيقتين.

وقبـــل أن يدخل الدكتور نقر الباب بمفاصـــل أصابعه قبل الدخول إلى غرفة النوم التي تتواجد فيها حميدة.

بصوتٍ مختنق أجابت إحدى الخادمات:

ـ اُدخل.

دخل الدكتور مسرعًا وبقي رفعت بيك في الخارج ينتظر، بينما وجه زوجته في الداخـــل يتقلص من جديد، جلس الدكتور على كرسي خلع الأحذية، عندما سمعها تشتكي أدار وجهه لها:

ـ اضغطي.

ـ لا أستطيع يا دكتور.

نهض الدكتور من مكانه ثم قال «رأس الطفل هنا، إنه صغير».

مرّ أكثر من نصف ســـاعة ولم يتغير المشـــهد والقابلة تحاول جهدها لكي تخفف عن حميدة تعاستها وبجانبها الخادمتان.

انتابها الألم فقال الدكتور:

ـ اضغطي بقوة.

تقلّص وجهها، لكن عندما اختفى الألم، بدت متوترة وكان صوتها واهنًا، تردّت حالتها وبدأ القلق بالتصاعد.

بعد ساعتين وبالتحديد ـ 12 ـ صباحًا كان التمدد مكتملًا بالفعل والطفل لا يخرج، وحميدة تصرخ ولكنها ما زالت لا تُسهم من جانبها بأي شيء لكي تكلل العملية بالنجاح.

عندما اختفى رأس الصغير من المخرج، وبدلًا منه ظهرت ذراع صغيرة براحة يد مفتوحة مهتزة، كأنها تودع أو تحيي.

ظلت الذراع هناك ساقطة ومترهلة بين ساقي حميدة المنفرجتين، خرج الدكتور عن طوره وشعوره وقال محافظًا على هدوئه:

ـ اللعين يقوم بالالتفاف، كأنه شيطان.

قامت القابلة بدهن ذراع الصغير بمادة أخرجتها من حقيبتها وبحركة سريعة ومحترفة وخبيرة، أعادت إدخاله إلى بطن أمه.

أمسك الدكتور بكتفي الوليد بأصبعه النحيفة، وبمهارة شديدة أداره بحيث وضع الرأس الصغير مجددًا في مدخل فرجها.

أخذت حميدة تصرخ وتسب من دون وعي كل شيء، ورغمًا عنها، شعرت بقوة متراكمة في الحوض، صرخت، وضغطت بكل قوتها بينما تشجعها القابلة.

ـ نعم، هكذا، هكذا، أنت قوية.

وفجأة..

كأنّهُ مقذوف.

انطلقــت قطعة دموية من اللحــم الوردي مندفعة بقــوة، تراجع رأس الدكتور لتفادي التصادم، وحطّ الوليد على الفوطة البيضاء التي تحملها القابلة بين ذراعيها خَلْفَه بقليل.

حميدة تشعر الآن بالإنهاك، خائرة القوى.

ـ طفلٌ ضئيل، يبدو قطًّا صغيرًا.

قال الدكتور متطلعًا بدهشة واستغراب للوليد الضيف.

–28–

حينما عاد السـيد إلى داره، كان يجتهد في تهدئة نفسه المطوّقة وهي تضرب بجناحيها مستريعة على حد السكين. لاقوه المئات من الحشد، بالترحاب والصلوات علـى النبي وآله، ولما انفرط الحشـد، دخل الـدار مع ابنته وزوجها ليرتاحوا ويجلسـوا جلسة شاي عائلية ويثرثروا فيما حدث وما يجب صنعه في المستقبل.

يلامـس لحيته، يفكر في صمت، تعمق في التفكير بشـكل أثار انتباه ابنته وحمدان، صبّت سارية الشاي بشيء من التوتر ولكن رغم ذلك فالابتسامة لم تغـادر وجهها الجميـل، كان حمدان يتمتع براحة نفسـية لم يعهدها من قبل، لأنه أحسّ بأنّ السـيّد لن يقلق بعد الآن من مواصلة ممارسة طقوسه الدينية، وما دام المدير قد أطلق سراحه فهذا يعني أنه سـيظل بخير.. ولن يتكلّف أيضًا مجددًا بمجازفة حمقاء من شأنها إيذاء السيد وخصوصًا بعدما هاج أنصاره وكادوا أن يستميتوا لنصرة السيد.

بعد أن تبادلوا أطراف الحديث.. بادر حمدان بسؤال اعتبره السيد أحمق وبلا شك:

ـ عمّاه، أرى أن المدير قد اقتنع بأنك أخيرًا لسـت ممن يضحكون على الناس ولا غبار من مكانتك المقدّسة بينهم، لماذا لا تمد معه حبل الصداقة وتكسبه.

تطلع السيد إلى حمدان بنظرة يكسوها الغضب والحنق، وكاد أن يطلق من لسانه: لو لم تكن زوج ابنتي لنكحتك أيها الثور البرّي، ولكنه عدلَ عن هذا اللفظ ثم أردف:

ـ لو كان بيدي لمددت الحبل إلى رقبتك وعلّقتك منه في السقف، ألم تفهم بأنّ هذا الرجل هو مدير الأمن.. غبي.

ازدرد حمدان ريقه بشيء من القلق، أما سارية فاكتفت بأن تحدّج والدها بنظرة احتجاج على ما قذف زوجها من جواب غير لائق وبذيء إلى حدٍّ ما.. وبحضرتها، فأي امرأة بالعالم ترفض أن يُسبّ زوجها من قِبلِ أحد مهما كان.

جمع أنفاسه ثم تظاهر بالهدوء قائلًا:

ـ أكسب مدير أمن فاسقًا؟ «هنا تطلع إلى ابنته وكأنه يريد أن يقول شيئًا آخر لحمدان فكتمه خوفًا أو احترامًا لمشاعر ابنته «وهل المدير بحاجة إلى حرز.. إنه سكّير ولا يعبد إلا فروج النساء والكأس».

لم تكن إهانة السيد من قبل الضابط له وأمام الناس بالشيء الهين، عندما أخذوه من بيته كالمذنب إلى مقر مديرية الأمن، وكان فضوله يدفعه لكي يعرف فيما لو كان وراء هذه القصة «جودت بيك».. فمحتمل أنه أمر أحد ضباطه بتنفيذ المهمة بدلًا من أن ينفذّها بنفسه.

بعدما صبت الشاي اقتربت منه كعادتها بهدوء بعدما كان والدها قد عاد إلى سُبات التفكير كعادته.. متجاهلًا كل من حوله، متربعًا على الأريكة كالديك، مدّت يدها أمام وجهه بالشاي الذي أصبح بمستوى واحد من عينيه،

وكأنــما تفعل ذلك عمدًا لكي تجعله يكف عن التفكير، ويا ليتها تعرف بماذا يفكر.. عاد إلى عالمــه وتطلع إلى عينيها، قبّلهــا في منتصف جبينها وتناول الكأس وشكرها بحنان..كاد أن يأكلها في داخله، ثمّ عادت إلى مجلسها بتأنٍّ ودلال مشرقة الوجه بابتسامة رضا، وأخذت مجلسها بجانب حمدان.

دار الحديث بشكل طبيعي حتى مالت شمس الضحى، ثم مالت أكثر في سكون. وأتى المساء وتوغل، واستتب الليل، والناس في بيوتهم واجمون من الأحداث التي جرت قريبًا.. وبقيــت القرية صامتة يداخلها خوف من الآتي وخوف من أن يفقدوا رموزهم الدينية مع الأيام التي لا ترحم.

صالة الجلوس الآن فرغت إلا من الســيد.. وكأنه بانتظار وَحْي.. ولكن وحيٌ من نوع آخر..

أو ينتظــر قادمًا مجهولًا.. من مكان مجهول، من بين ظلام الليل الدامس، كان واقفًا أمام الشباك الذي يطل على باحة داره الخارجية، يتأمل بفضول في الخلاء.. بالتحديد في الظلام الذي يلف السماء.

رأى وميضًا.. سرعان ما تحول إلى شــبح يتراقص بين ستر الليل.. يستطيع أن يميّز الظل من حَمَارِهِ، الذي يسبــح في الفـراغ... في ظلام الليل حيثُ يتراقــص تحت بقعة باهتة عــلى الأرض، فأخذ يتمايــل وكأنه في رقصه كلهيب يشــتعل .. يكاد يكــون الآن أكثر وضوحًا وهــو يقترب أكثر وأكثر.. من السيد.

همس الصوت:

ـ جئتك لأمر هام.

رفع السيد حاجبه بفضول وتساءل بعينيه.

ـ زجاجة في قارورة زرقاء، تحوي شرابًا ينتشي شـــاربه شهوة خاصة لن ينساها.. إنها لسارية تشرب منه ولكنها ستنسى مع من جنت الإثم.

ـ وزوجها؟

ـ يريد قرينًا، فابعثه إلى قبر سندلك عليه الآن، اقتربت نهايته فلا تقلق.

ثم هب فحيح خفيف من الهواء وكأن القرين يعلن عن اقتراب أمر هام.. وقد حان وقت إعلانه على السيّد الآن:

ـ مـــا أن تطأ قدماك حجرتك تجـــده في قارورة صغـــيرة لازوردية على الخوان، اقترب موعد ترملها وموعد حبلها.

ابتســـم السيد بخبث.. تحسس بضاعته من خارج السروال يتخيل سارية عارية، نائمة بين أحضانه، اقترب وقت الخبث الذي طالما كان يحلم بها.

ارتعش بلذة يكاد يقذف حتى صرخ خافتًا.

ـ هرررررررر..

أزكى صرخته المرتعشة بخبطة قدم، على الأرض، والقرين يراقب بهدوء.

ـ اُخرج لأقودك إلى القبر، موضع دفن البيضة، الوقت الآن ملائم جدًّا.

-29-

اهتزازات الفانوس وسط شواهد القبور بدأت تبعث الحياة في الضلال النائمة، فقامت ورصدت شبحين يتسللان إلى المقبرة، السيد وقرينه، لا أحد يرى القرين إلا صاحبه، لم يوقفهما كلب أسود يزمجر أو قطة تموء حتى وصلا لفناء متواضع يكثر حوله الأشواك، همس الصوت:

ـ قبر أنتن رجل في التاريخ، زنى حتى بأمه عندما كان كهلاً في الأربعين، مات وهو في الثمانين بعدما بلغ ما بلغه من عظمة الغنى.

مدّ السيد يده في غياهب الجلباب ليخرج مسمارًا ليحفر على حجر القبر مجسم نجمة سداسية.. كعلامة استدلال يهتدي به حمدان.

همس الصوت :

ـ ما أن يتم حمدان دفن البيضة هنا، ستبعثه لأمر مهم إلى مكان بعيد ليعود بعد أن يتم أربعين يومًا.. ليتخصّب البيضة.. وستجعله يتأخر على قرينه.. وما أن يتأخر على موعد ولادة قرينه سينجز الأخير واجبه ويقتله.. وستكون أنت بعيدًا عن كل الشبهات، ستتخلص من شخص قبل أن يتخلص منك.

سكت برهة، كان السيد يستمع باهتمام شديد لتعليمات القرين:

ـ ستضاجع فتاتك الجميلة عندما تأمن ذلك.. وفي اليوم التالي ستكون قد نسيت من ضاجعت بفعل السائل، ولكنها لن تنسى اللّذة طالما هي حيّة تُرزق وستتمنى المزيد..إنها لذة الشياطين سنقذفها عليها كلما احتجنا لذلك.

سادت مرة أخرى لحظات من الصمت.. ولكن الكلام يمتد، وكانت الشهوة تتقد في داخل السيد كحيوان حبيس، وكانت الأخيلة تتوالى في رأسه، يرجّح ظنًّا، ويعود يرجّح آخر، ولا طائل من إيقاف ما سيقع، كالنار الموقدة تستعر وتضطرم، ومن ثمّ تلهب العيون وتخنق بدخانها الصدور.

-30-

عندما أذن الله للصبح الطيّب بأن يطلع، كانت سارية تعد فطور الصباح قبل البدء باســتقبال الزوار، الذين يتوافدون من مختلف أرجاء المعمورة من مناطق الجنــوب العراقي، لكي يحصلوا على حرز الرزق أو المحبة أو الزواج.. يصنعها الســيد لهم بابتســامة يجتهد في ضبطها والتحكم بها، فتغالبه وتسري في ضوء عينيه وانفراجة أساريره.

*****

وتجــّلى النهار، وأشرقت الشــمس.. كان حمدان يقــف خلف زوجته الرائعة الجمال، يتأملها وكأنه يراها لأول مرة، يمســح مؤخرتها بعينيه المحمومتين، انتبهت صدفــة لذلك، فلم تعهد حمدان بهذه الطبيعة من قبل، تساءلت واحتار حمدان في الإجابة أيضًا، فأخبرها لربما كان سحرًا من عمل والدها ألقــى بينهما هذه الغريزة المفاجئة.. ضحكا لهذه الفكرة السخيفة وتمنيا لو كان هذا بالفعل ما حصل.

حدّجته بنظرة من طرفي مقلتيها، مصمصت شــفتيها ثم جدلت خصلة حول أصبعها بشهوة وهمست بدلال ذائب:

ـ ألن تعقل.. ماذا دهاك اليوم؟

ـ وهــل يعقِل المجنون، والجنون في أحشــائي قد اســتقر منذ رأيتك يا سارية، لن أشبع منك أبدًا حتى أموت و..

أسكتته واضعة أصبعها على شفتيه قائلة مقاطعة له بحنو:

ـ ستبقى لي، ولن تموت أبدًا، سأجعل والدي يحفظك لي وسنُخلّد معًا.. سوف ترى فِعل الشياطين.. أقوى من كل شيء آخر.

ـ لقد أمرني بالذهاب إلى البصرة لإنجاز عمل له وسأتأخر.

ـ أعرف، آه وألف آه لو فكرت بالخيانة، ولو تضاجع إحداهن، ســأقلع لك الخصيتين.

ارتعش بدن حمدان وطرد هذه الفكــرة الدامية من مخيلته ولزم الصمت حائرًا، لا يدري بما يجيب.

مدّت بدورها يدها لتهدئ من روعه، مداعبة مناطق حساسة من جسده.. فارتعش جفنا الرجل ثم استســلم لمداعبتها حتى أتاهما زعيق السيد من الخارج ينادي بالإسراع بالفطور لضيق الوقت.

انتفضا من الصوت المزعــج.. وولى حمدان بسرعة الــبرق إلى الخارج تفاديًا للشتيمة، فعادت سارية لتركز في صنع الفطور الصباحي.

-31-

عندما كانت سارية منشغلة بإعداد الفطور، انتهز حمدان الفرصة وأدخل معه بيت الخلاء بيضة كان قد أخفاها في جيب الجلباب الواسع.. لكي يستمني داخل تجويف الإبرة ويحقنها بالبيضة.. وخز قشرة البيضة بحذر.. ليخترقها بتأنٍّ.. لكي لا يكسر البيضة وتفسد العملية.

ثم أفرغ كل شيء بنجاح.. ضاغطًا على أعصابه لكي تتم العملية بلا فشل، أفرغ حتى آخر قطرة من المني في جوف البيضة، استلّ الإبرة من جوف البيضة ببطء.. وصرّ كل شيء في كيس من القماش صغير.. ودسّها في جيب جلبابه.. ولكنه ظل محافظًا على وضع يده داخل الجيب كي لا تنكسر أو يفسد محتوى البيضة.. خرج مسرعًا عبر السلالم مستغلًّا انشغال سارية بإعداد الفطور.. ثم أخفى كل شيء داخل بقجة السفر الموضوعة على الخوان.

نزل إلى السيد، يواظب على عدم إثارة الريبة في نفس زوجته الذكية.. فتحدّث هامسًا مع السيد أن كل شيء على ما يرام.

ـ القبر الذي وصفته لك.. العلامة السداسية على الحجر الموازي لرأسه، «ثم مؤكدًا» العلامة يا حمدان لا تخطئ القبر، مصير العمل مرتبط باختيار مدى دناءة صاحب القبر.

ـ لقد حفظت التعاويذ التي سـألقنها على البيضة أثناء دفنها فلا تقلق يا عمي.. في اليوم الحادي والأربعين سأكون هناك كما قلت لي.

ـ تأكد أنك ستدفنه بعد منتصف الليل.. تخرج من هنا لتقضي بعض الأمور ولا تعد إلى البيت بل اتجه إلى دار السائق.. فهو سينتظرك بعد منتصف الليل ليأخذك إلى البصرة.

هنا دخلت سارية بصينية الإفطار تبتسم، وجدتهما يتهامسان على غير عادتهما، شكّت في الأمر وسألتهما على الفور:

ـ اليوم لستما على ما يرام أعتقد أن سرًّا عظيماً تخفيان عني.

قهقه السيد، فهو يعرف جيدًا مدى ذكائها، ولذلك حاول تبرير ذلك بسرعة قائلًا:

ـ زوجك يسألني عن نوع هدية مناسبة من المفروض جلبها لك من البصرة.

ـ نعم.. نعم، السيد يشاركني الفكرة لا غير.. وها هي المفاجئة قد فسدت حبيبتي.

تطلع السيد إليه بحنق ولم يُعقّب.

وضعت الصينية بأريحية ووجه مبتسم ثم بدأت تصب الشاي أولًا قبل أن تبدأ بتوزيع الأرغفة الحارّة، التمّ الثلاثة حول على مائدة الفطور البسيطة على الأرض، ثم قال السيد موصِّيًا حمدان:

ـ حمدان.. إن رأيت أبو جعفر أخبره أنني مستعجل جدًّا في تجهيز المواد، إنه عطّار جيد وبارع في اختيار المواد الجيدة ولهذا لا أستغني عنه.. لطالما كان يلبي حاجاتي على مدار سنين طوال.

* * * * * *

كان حمدان دائمًا يَحذَر من غضب السـيد، يعلم أن غضبه موارب، يحمل له الامتنان لتزويجه ابنته، ولكنه لا يسـتطيع أن يعيش العمر كله بلا قوة ولا سلطة كما السيد، فهو أيضًا من نسل السادة ـ أي حفيد آل البيت ـ على حد تفكيرهم، والسيّد مُقدّس في مذهبهم.. ولا كلام يعلو على كلمته..

أمام حمدان الآن القفز إلى مصاف الغنى، فهو يعلم أن السـيد يسـتغل شهوة حمدان في نيل القوة، وها هو الآن يقدّم له الإغراءات.

سوق الدجل والسـادة والمعممون هي المطحنة، التي اختاروها لسحق عظام النـاس، فهم يوكّلون أمثال حمدان لتمريـر الطُّعم لجوف الناس، بصبر وتؤدة.

حمدان وأمثاله كالأفعـى التي مررت إبليس للجنة، كالسـيد يدخل في حياة النـاس الآن عن طريق ممهدين لهم، هنالـك أمثاله من العشرات في العراق ومناطق أخرى.. وربما نسـتطيع القول المناطـق التي ابتلاها الله بشر أعمالهم ويظنون أنهم يحسـنون صُنعًا.. سلّط عليهم دَجلة.. وسفلة، والسّيد كأنه تاجر يخشى من غائلة السوق الآدمية التي يتعامل معها، عليه بتوخي الحـذر.. ولكن حمدان.. كان كالعادة صفـر اليدين في كلٍّ.. هذه أحلام السيد باتت تتسع لبلع البلد كله.. والسيد يؤمن بأنّ المال يستوجب الركوع ومن لا يركع لا يحصد إلا اللكمات.

غادر حمدان مسـاءً إلى البصرة.. ولكنه لم يقصدهـا فعليًّا، فكما اتفق مع السيد فالسفر المبكر فقط هو لتمويه سارية لا أكثر، انتظر في بيت صديق

وعندمــا حلّ الظلام انطلق إلى المقبرة، وصـــل إلى القبر وتأكد بعدما رأى وتحسس بأصابعه نحت النجمة السداسية على الحجر.. بأنه القبر المقصود.. أخرج البيضة برفق شديد من البقجة ودفنها بحذر بجانب قبر الميت، خرج بسرعة من المقبرة متجهًا إلى بيت السائق الذي سيقلّهُ إلى البصرة.

وهناك:

تغلغلا في جوف شوارعها عميقًا مخترقين أحياء نبتت على خاصرتي المدينة حديثًا، حيث يزداد الاختناق، وتعيث الرطوبة فسادًا بالأجساد.

كان يفكر بالبيضة التي ستحدد مصيره، فعليه ألّا يطيل الغياب.. أربعون يومًا وسيتغير كلّ شيء.. كلّ شيء.

فهناك حياة، مستقذرة، تجد نفســك مغمورًا في دنسها، حتى لو نازعتك النفس في التخلص من قذارتها..

ستبقى راسبًا بين لزبها ونتنها.

غياب حمدان لم يؤثر ســلبًا على ســارية رغم الأيام القصيرة لسفرهِ، بل صارت نشــيطة أكثر في أمــور البيت.. عندما ســألها أبوها عن سرّ هذا النشاط غير الطبيعي.. أجابته لو عاد حمدان من سفره فالأفضل أن يلقاها بوجهٍ مســتبشر لا حزين.. يجب أن يلقاها وهي أكثر تألقًا ونضارة.. بل لم تــترك للحزن والغم والهم فرصة لتأكلها.. ولكي لا تزيغ عيناه ويتأكد في نفس الوقت من أنه قد تزوج من امرأة تختلف عن ســائر النساء، امرأة قوية.. وجميلة.

لم يكن والدها يُعلّق.. بل كان يُخطط لها.

صارت رائقة البال، لا تضيق بمطالب الزوار عندما كانوا يطلبون العجب منهــا من طلبات كثيرة.. في أثناء فترة انتظارهم للدخول على الســيد في ديوانه الذي توسع كثيرًا.. يسمعون ضحكاتها وهي تكركر كالماء العذب المندفــع من الجبل بعد ذوبان الثلج.. بجســمها البض، تنتقل من مكان لآخر.. بل صارت تتحمم كل يوم مرتين، تكحّل عينيها، وتدهن شعرها الجميل اللامع بزيت اللوز، فأصبحت كزهرة أزهرت في الربيع، وأينعت وتكاثفت أوراقها بمختلف ألوانها، ورديــة وقرمزية وصفراء وبيضاء،

كانت تشاغل الناس ببهائها، تشبك عابر السبيل فيرفع عينيه، ويراها تجلس كحورية خلف الشباك، كانت تتطلع هي أيضًا ولكن على مفرق الطريق عسى حمدان يعود إليها مبكرًا. تعرف أن الوقت ما زال بعيدًا لعودته، ولكنها ترى بعين الخيال عودة الغائب الحبيب.. وما تزال تنتظر.

* * * * * *

كانت أخيلة غريبة تزورها وهي نائمة، ظلال تتراقص على جسدها المسجّى في الفراش، وهي كاشفة عن ساقيها الرائعتين كلؤلؤتين تلمعان وسط العتمة.. هبّت من نومها فجأة ذات ليلة، فتحت عينيها الجميلتين، اعتدلت جالسة يأكلها شيء من الخوف وكثيرٌ من القلق الذي لا يرحم جمالها، لم يبادرها بزيارة الظلال لها، ظلّت متربعة على فراشها.. تتحامل على نفسها لتكسب قوة وشجاعة على ما يحصل لها الآن.. فتحبس أنفاسها.. لترهف السمع.. همست:

ـ خيال.. فقط.

تحدّق في الظلام لا ترى شيئًا فتتأكد أنه خيال.. فقط.

ثم قامت وتحسست طريقها إلى القنديل وأسرجته.. لتتطلع إلى غرفتها التي باتت كالمهجورة.. إلا من أثاثها. اندفعت غريزيًّا إلى الشباك تستجمع شتات نفسها التي أرهقها القلق، وضعت القنديل على مصطبة خشبية بجانبها، غفت ثم أفاقت مرتين، حتى سقط ذقنها على صدرها..

وظلّت نائمة حتى مطلع الفجر.

– 33 –

وصل حمدان إلى البصرة وتوجّه مع السـائق إلى أحد المقاهي التي تعمل ليلًا أيضًا، وجلسـا يحتسيان الشاي، استغل السائق هدوء الليل فاقترب من حمدان وهمس:

ـ هنا توجد حسناوات تدفع لها وتبيت عندها، أحسن من الفنادق.. وما تدفعه هناك تدفعه هنا.

تطلّع حمدان بفضول ثم قال له:

ـ ألديك معارف؟

ـ طبعًا وهل أنطق من فراغ.

ـ إذن نذهب بعد الشاي، التغيير واجب.

صعدا السيارة وانطلقا إلى جهة خمسة أميال، وتوقفت السيارة بهدوء في حي مظلم.. أمام دار متهالكة البنيان.. في حي شعبي.. أطفأ محرّك السيارة وترجلا بصمت.

أمسك بالسـقاطة وطرق الباب بهدوء.. وكان السائق يسلك وكأنه على معرفة سابقة مع أهل الدار.. خرج رجل له جسد نحيل.. عيناه عسليتان

تلتمعـــان كبريق ماكر، بدا كفأر مكتوم اللون..سـلّما عليه ودخلا الدار بأدب وهدوء.

تبادلوا الحديث في صالة الجلوس.. البيت كان عكس ما كان يعكسه من الخارج.. نظيف ومرتب وكأنه تم بناؤه حديثًا والأثاث نظيف وحديث.. اتفقوا على سعر مناســب لقضاء فترة الإقامة معهم، ثم قام حمدان لأخذ حمام ليريح جسده المنهك ويزيل عنه غبار السفر.

كان يستحم في جو من الراحة.. حتى اقتحمت عليه الحمام امرأة.. كانت لها قسمات منحوتة، واضحة، وجه أسمر يميل إلى استدارة وجبين واسع، عيناها سوداوان تميزهما سحبة في الجانبين ملحوظة، أنفها جميل وكبير.. وشفتاها ممتلئتان، وشعر أملس طويل يلتمع سواده في ضوء القنديل.

سألها حمدان:

ـ ما اسمك يا حلوة؟

ـ مريومة.

ـ مريومة.. الجميلة.. أنت غاية في الجمال.

ـ هل عندك شك؟

ـ لا بالتأكيد.. وإلا لما سمحت لك باقتحام الحمام.

قهقهت بمكر ثم قالت ساخرة:

ـ آه، مفهوم.. أراك كذلك.

اقتربــت منه ثم أخذت منه الكيــس وصبّنته بعد أن صبــت عليه الماء، أجلســته وبدأت بتكييسه، اليد اليمنى، ثم الذراع اليمنى.. وتحت الإبط ثم انتقلــت بالتدريج إلى الأجــزاء الباقية من الجســم.. تعرّق بدنها ثم تعرّت، كانت امرأة بالغة الحُســن، ميادة القد، وثدياها كأحقاق العاج، خصيبة البدن، في ثدييها امتلاء.. عريضة الأكتاف والأرداف.

عندما انتهت من تكييسه صبت عليه الماء..كانت تداعب المناطق الأكثر إثارة في حمدان فيستشــيط حرارة وشــهوة.. خرجا من الحمام وهي تسير متهادية يرتج جســدها الخصيب الممتلئ ارتجاجًا.. لم يكن في صالة الجلوس أحد.. وكأن السائق وزوجها قد ذابا كذوبان السُّكّر في الماء.. تساءل حمدان.. فردّت عليه بأن زوجها والسائق في غرفة النوم الثانية ثم زادت لتقتل فضول حمدان:

ـ إنهما مثليان.

ســحبها نحــوه وقبّلها قبلة سريعــة حيية طبعها على خدها الأســيل.. وصلا غرفة النوم.. حتى سمعا وطء السرير وهو يرتج في الغرفة الثانية والآهات تصدح فيها، ابتسما ودخلا.

أعطته المرأة نفســها.. كانت نفســه تضطرم وروحه تشهق، وقد اجتمع عليها نصل السكين والرجفة الحيية..

ينهلان من كوثر الفردوس وهي تشــتعل محرّقة بالنــار وكأنه أول ذكر يضاجعها في حياتها.

داعبته وداعبهــا.. بجرأة غير طبيعيــة من الاثنين.. أثبــت فيها حمدان رجولتــه، وأثبتت هــي الأخرى أنوثتهــا التي لا تُقهر..كان جســدها فائرًا وخصيبًا.. شــهق مأخوذًا.. بدأ يمرر يده على جسدها حتى أسفل الساقين.. ألصق جسده بها ومرّ بشفتيه يقبلها ويقلبها ويدغدغها.

تموء كالقطة البرية، فيزداد الثور الهائج شبقًا على شبق.. ثم أمالها وغمرها بجسده العاري الضخم، حتى طاشت فيه نار الفعل التي تعلو وتلتهب.

أول ليلة لم ينســها حمدان، هكذا قــضى الأربعين يومًــا في بيتهم.. أكلٌ وشربٌ وسهرٌ وجِماع.

في حــين كان أبو جعفر العطّار قد طلب من حمدان أن يتريث حتى تصل المواد المطلوبة من النجف.. وقد تتأخر أسابيع بسبب سوء النقل. اغتبط حمــدان لذلك.. لكي يكون لبقائه الطويل مبرر كافٍ يبرره لزوجته. وإذا تطلب الأمر أكثر فسيذهب إلى مكان البيضة ويتفقدها خلسة.. ومن ثم يعود أدراجه إلى البصرة وينتظر.

إذن كل شيء تحت السيطرة.

-34-

الأسبوع الأول لغياب حمدان:

اضطرت في الآخر أن تبُثّ شكواها لوالدها.. أضغاث أحلام ربّما.. ولكنه يجب أن يعلم بما يجري لها.. لكن والدها أكّد لها أنها يجب أن تشرب شرابًا يملكهُ يساعدها على طرد الكوابيس.. وعليها أن تسمع الكلام.. وسيختفي القلق والأرق.

رحّبت سارية بالفكرة.. وألحت أن يعطيها الشراب.. لكن والدها أخبرها بعد المغرب هو أفضل وقت تتجرع فيه الجرعة لكي يعمل مفعوله بانتظام.

اشتكت له بأنه أحيانًا يثقل عليها الصحو في الظلام، فتشعل شمعة وتروح تتابع شعلتها الراجفة والظلام على السقف والجدران.. كان السيد جالسًا حينها في الصالة بهدوء.. إنه يوم راحته لا يستقبل فيه الزيارات.. مستأنسًا بوجودها وبوجهها الاسبرانزو الوديع المستغرق في الشرح.

فحضورها الفطن وضحكتها الرقراقة تقتل كل تعب ومشكلة تواجه السيد في أوقاته أحيانًا.. ولكنه للأسف يجب أن ينفذ أمر أسياده، فهذا شرطهم الذي يتمسكون به.. لكي يحصل على ما يحصل عليه اليوم من قوة وهيبة. يعلم جيدًا أنه يُدجّل على الخلق باسم الدين وآل بيت النبي، يستغل ولاء الناس الطيبين لصالح أعمال لا تمت إلى الإسلام ولا الأديان بشيء.

عندما حلّ المساء.. وانتهيا من وجبة العشاء.. أعطاها السيد القارورة الصغيرة، وهو يراقب بعينين تقدحان شهوةً وخبثًا عاليين.. ظلّ يراقبها بشغف حتى شربته.

ثم وصّاها أن تذهب إلى الفراش على الفور قبل أن يكبس عليها النوم الثقيل.. فالشراب قوي المفعول.

لاحظ عليها بأن صدرها وظهرها ومنابت شعرها قد ابتلّت، يكاد يسمع دقات قلبها، قالت وهي تحاول أن تلتقط أنفاسها التقاطًا:

ـ نعست يا والدي.

أخذها من يدها وسحبها برفق إلى الأعلى وهي تتمايل وتترنّح تكاد تفقد وعيها وتغرق في حلم سيدرّ عليها عواقب غير متوقعة.

-35-

كان الجو لطيفًا والليل ســاجيًا والظلمة شاملة إلا أنّها كثيفة تحت عرش الطبيعة، رقيقة في نصف السـطح الآخر المسـقوف بقبّة السماء المرصّعة بلآلئ النجوم.

وفيما هــو كان يتأمل الخارج من الشــباك وكأنه ينتظر إذنًا.. اسـتدار وتوجه نحوها وهي ممدّدة على السرير.. يسير الهوينى.. تسلل إلى أذنيه حفيف.. أو لعلّه همس.. بل أنفاس تتردد بين لحظة وأخرى فحملق في الظلام سائلًا:

ـ أوَليست لي؟

ـ بلى هي لك.. والقادم لنا.. تذّكر.

حرّك رأسه بالقبول.. واندفع بهدوء نحوها، اضطرب جسمه برغبة عارمة، صح له سوابق غير منكورة، ليس حتمًا أن تقع بغيته على طراز سارية.. ميزة حُســن واحدة تغني عن غيرها.. وفي خطوات وئيدة محملقًا صوبها، جلس بقربهــا، مسّ بيده أحد ثدييها، بل تركهُ يصافح الثــدي الآخر، ثم مدّ يده

إلى دائرة الصـــدر الناهد، صغيرة منتفخة، وحــرّك ذراعه حركة ناطقة بالتردد، غير مصدقٍ أن ما بين يديه لحــم مختلف.. غواية من نوع آخر. فتوقف متسائلًا بصوت خرج من بخار الشهوة منصهرًا متوهجًا.

ـ أهذه سارية ابنتي.. كل هذا الحُسن فيها؟ الله يلعنك يا حمدان الثور.

لمس أهداب شعرها بأنامله وسوّاها.. وقد لاح إبطها من فرجة الفستان، أملس ناصعًا رغم الظلام النســبي.. يتصل منحدره بأصل نهد كقرصة العجين، حتى سرت في بدنه سكرة الهياج، وانقضّ عليها كما ينقض النمر على الغزال.

-36-

لم يكن سـفر حمدان إلى البصرة سوى خطّة سـوداء دبّرها السيد.. اتفق فيها مع العطّار والسـائق.. وذريعة تأخير المواد كانت اتفاقًا معقودًا بين السيد سامي وأبو جعفر. فالوقت مطلوب لتنفيذ مأرب السيد على رواق وهدوء البال، وأربعون يومًا كافية لإكمال كل شيء.

لا بد لحمدان من نهاية تُسـقطه، نهاية لا يرجع منها.. وكل ما صنعه السيد لا يعود ذا قيمة حين ينافسـك شخصٌ ما في جاهك، أليس كافيًا أنه تزوج من سارية؟ ماذا يريد النذل بعد؟

ملل إتيـان الفواحش خرج من أنفاس السـيد، ولكنـه كان بحاجة لسـلوى جديدة لقلبه.. اقترف كل المتع، وكلّما عبر إحداها، وجد أن الحياة تضيق به.

يقعد في ديوان بيته فتأتيه الحسـناوات بعقول فارغة ويطلبن أن يحبلن.. ولا مانع لو كان الفاعل هو السـيد نفسـه بل بالعكس سيكون المولود مُباركًا فيه حيث ستنفحه دعوات الملائكة بالعمر المديد والسعيد.

النساء يعشــقن التحديق، تعشق إحداهن أن تُســمّر عينيك بها لترتوي أنوثتها.. والسيد يستطيع أن يزيدها زهوًا، ونشوة.

المال، المتعة، الجاه، آخر المُبهجات التي وصل إليها، صاحب القامة الراسبة.

المــال يجفف الأخلاق، فلا أحــد يهتم الآن بالمبــادئ، الناس تعبت من الحياة، والنســاء حائرات.. يشكين من برود أزواجهن.. ومن الوحدة .. فلِمَ لا أكون الأب الروحي لهن، بل للقرية كلها؟.

قالها محدِّثًا نفسه.

لمح كلبًا أسود.. قذفه في سرّه بالسب متموجًا بسخرية لاذعة لحاله:

ـ أتراكَ جني أم كلب حقيقي؟

في هذا الوقت من الظهيرة تســيح الحيوانات كما لو كانت أصباغًا ســيئة الإعداد.. تشــتهي قطعة لحم أو جيفة ملقاة عــلى الطريق لتكون وليمة مناسبة لبطونها.

لا يحب السيد أن يرى حيوانات متسكعة أمام بيته، تتحرك موجة غضبه المتجعد ليُرســل شــخصًا من أهل بيته ليبعدها عن أنظاره بالضرب أو التلويــح بحجارة وقذفها عليها بغضب. ولكن الكلاب الأكثر بذاءة تمر كل يوم من أمام بيته وتعوي عواءً مســعورًا ليستشيط السيد غضبًا ويبدأ بالكفر واللعن مِنَ الذي أوجد هذه المخلوفات بلا فائدة.

-37-

الليلة عودة حمدان...

حضر الســـائق في الموعد المتفق عليه.. وكان حمــــدان مبتهجًا على قضائه الوقت مع السيدة، كيف ينساها وهي تمشي إلى اتجاه السرير بخطى وئيدة فيهتز ردفاها ويســـتقيم جذعها كالقضيب ثم تنام عليه وتغطيه بجسد كله أنوثة.

تمتمت بدلال وهي تودّعه:

ـ لا تنسَني.

ـ أنساكِ.. كيف أنسى من أنسَتْني نفسي.

ـ أنسيتُكَ حتى زوجتك؟ «قالت بمكر».

ـ الله يلعنها. «قال باستياء».

كركرت ثم قبّلته قبلة طويلة من شفتيه.. مصمصتهما وكأنّها أعلنت عن حرب لا مردّ منها ثم تركته ودفعته ضاحكة نحو الباب.

ســافر حمدان مع السائق إلى الهارثة، يســتذكران بفخر أحداث الأربعين يومًا التي مضت بسلام.. ثم قال حمدان بخبث:

ـ لم أعرف بأنك تحب مضاجعة الرجال.

لم يخجل الســائق بل بالعكــس اندفع ليحكي حكايته مع زوج الســيدة صاحبة البيت قائلًا:

ـ أنقذته من ناس كانوا يضربونه بقســوة أمام داره، فشــكرني وقدّمني لزوجته، وفي الليل ضاجعت الاثنين معًا وما زلت.. فكما ترى أتصرف هناك وكأنه بيتي.

ضرب حمدان كفًّا بكفّ قائلًا بوجهٍ يحملُ الدهشة والابتسامة معًا:

ـ أنت داهية يا حاج .

ظلا يستعيدان ويســتذكران لبعضهما أحداث الأربعين يومًا حتى وصلا الهارثة التي كان يُغلّفها سكون الليل من دون أن يشعرا بالوقت..

ثمّ فجأة قطع السائق حديث حمدان قائلًا:

ـ عفوًا للمقاطعة.. أين تحب أن تنزل؟

ـ أنزلني قريبًا من المقبرة لأنني جلبتُ أمانة عليَّ بتســليمها لشــخص ما أولًا.. ومن ثمّ أتجه إلى البيت.

لم يبدِ السـائق أي اندهاش من هذا الطلب بـل أوصل حمدان إلى المكان الذي طلبهُ بكل سرور.. نزل حمدان وانتظر السـائق أن يبتعد ثم التفت يمنة ويسرة واندفع ببقجته مُندّسًـا بين المقابر. دخلها دون ارتباك، فرك كفّيه قائلًا:

ـ وصلتُ إلى ما أبغي إليه، دقائق تفصلني عن السعادة.

مشى..

ثم تقدّم واثق الخطى بمشيته..

تقدّمَ بين الأمـوات.. مُركّزًا عينيه إلى الأمـام، في نقطة لا يراها غيره.. عيناه تلمعانِ من شـدة القسوة، يدوس على قبرٍ صغير غائر بلا رحمة ولا يلتفت.. حتى أبطأ من مشيته..

وصل إلى القبر..

القبر!

و.....؟

تمسمرت قدماه في الأرض، كادت عيناه أن تخرجا من محجريهما ولم تمضِ ثوانٍ على ارتباكه..!

حتى حدث كل شيء في أقل من وهلة..

الجسد بدأ يهتز مثل شخشـــيخة بيد طفل سادي.. يهزُّه بعنف، وينتفض كأن خـــط إمداد كهرباء قد احتضنه.. حتى تفجر شريان صغير في عينيه، صرخة مكتومة انفجرت من نفســـه العفنة، وزبد سال من شدقيه قبل أن يميل بهيكله ويجثم على الأرض.. ويتقيأ نهرًا أصفر ممزوجًا بالدماء.

فانتفخت الأوردة في عنقه ووجهـــه وكادت أن تنفجر.. وكأنه تعرض لهجوم عاصر من قبـــل ثعبان الأناكونـــدا.. كالثور بدأ يقاوم شـــيئًا غير مرئي بلا جدوى.. حتى ســـكت بغتة، همد وارتخى وكأنّ روحه تنســـل منه غصبًا وبلا إذن، كالإرث بات يندثر..

وجههُ يشي بزوال المعاني، حتى همس بنفسٍ واهن متهدّج تملؤه حشرجة:

_ أأأأأأأأأأأأأأأأأأأأأأه.......

سوادٌ بلا قمر ولا نجوم ولا بشر...

سكون دام طويلًا...

حتى انبعث صـــوتٌ مفاجئ وكأنه كان يســـتريح من التســـلية ثم عاد ليواصل جنونه مع ضحيته...

لم يكن نباحًا لكلب أسود...

ولا زئيرًا لأسد فتكهُ الجوع...

ولا مواء قطة سوداء...

بل كان صوت حســيس نار بلا وهج، التفّ بغضب عارم حول جسده المُلقــى على الأرض كالثعبــان يلتف عليه.. وكأنه يريــد أن يترك خاتمة مناسبة على مشهد الرُّعب.

ثم اختفى كل شيء في لحظة.. تاركًا حمدان جثة هامدة..

مخلِّفًا وجهًا يابسًا.. وحُفرًا على خديه بخطوط غائرة وكبيرة.. وانخسفت عيناه في محجريهما كجزيرتين في محيط...

لفّ المكان هدوء... هدوء كبير يغلّفهُ الخوف..

أمّا الجسد الفارغ من الروح فبقي مُسجًّى على الأرض حتى طلوع الشمس.

-38-

بعد شهور من موت حمدان...

وبينما كان الليل يستبشر ببدره، وتدلّى كقنديل يتوهّج مخففًا وطأة الظلمة الرابضة في القرية...

كانت ولادتها عسرة، وكادت أن تشطُر جسد سارية وتهلكهُ إلى الأبد، كان الجسد كوَترٍ مشدود تحتمل ما لا يحتمله، حتى اندفعت الوليدة وسمعت صراخها الواهن.

فحملتها بين ذراعيها باكية، تأملتها وقبّلتها فأحسّت بمذاقها على شفتيها. وفاض حليبها فألقمت الفم الصغير حلمة ثديها.. فتحرك حشـــاها كأنما تشق تربته نبتة طالعة.

لم يتغير الســـّيد، لا هـــوَ مسرور ولا هو بحزين.. هـــو الوحيد من البشر الذي يعلم مصير الطفلة ومن أي شيء خُلِقتْ.

أمّا بالنسبة للأم فلم يكن ذلك فرحًا الذي ملأها لأن الفرح يضيق. كان شـــيئًا يسري في بدنها، يدخله الرهبة والفرح والوجـــل، تجمعت الحياة

ببدرها العالي وسمائها بالتصاق فمها الصغير بحلمة الثدي والصدر وكأنّهُ نبع أو ديمة سكوب في سماء الله الصافية.

كانت تنمو بسرعة على غير طبيعة الأطفال، ففي شهرها الخامس وعلى غير طبيعة الأطفال.. بدأت تحبو بسرعة وعندما بلغت السنة كانت أسنانها قد اكتملت بدون أن تصيبها الحمى كما تصيب بقية الأطفال.

أثارت هذه المسائل تساؤلات الأم ولكن أباها حذّرها من أن تتفوه بأي كلمة للجيران لئلّا يمسّ الطفلة حسد.. فما يحصل طبيعيٌّ للغاية.

السيّد لا يعلم كم سيطول من الوقت وتختفي الجنيّة الصغيرة.. عليه أن يسأل قرينه، ولكنّه ينسى في كل وقت يكادُ يسأل فيه عن مصيرها.. ولرّبما أنسوه.

كان في كل وقت يجلس بجانبها ويهمس في أذنيها:

ـ أخبريني من سيأخذك.

تتطلّعه بعينيها البريئتين ولا تجيب.. تملؤها براءة الطفولة بابتسامتها المفعمة البشوش. يُجلسها على حجرِه.. يحاول الوصول إلى شيء...

أي شيء..

ولكن الطفلة لا تعي ما يقول.

-39-

البصرة 1931

بدت حميدة وهي تتمعن أناقتها في المرآة مشرقة.. قبل أن تخرج لاستقبال «جودت بيك» الجالس مع زوجها في الصالة، بدت شديدة الإعجاب بنفسها، توفّرَ لها كل شيء، ولها ابنٌ الآن قد بلغ الخامسة من العُمر، وزوج غنيّ أخرق، و.... وعشيق وسيم.

والأخير بات يتغزل بها جهارًا أمام زوجها الذي أضحى كلعبة لا فائدة منه سوى أنه زوج بالاسم فقط. كانت تنصت باهتمام لما يدور من حديث بين العشيق والزوج، لا حبًّا في نباهة الزوج بل عشقًا في سماع صوت العاشق المحموم.

ارتشف رفعت بيك الشاي بهدوئه المعهود وهم جالسون في الصالة الفخمة بأثاثها وزخارفها الراقية .. قبل أن يسأل جودت بيك:

ـ أما زال الملك مشغولًا بأمور رجال الدين بعد ترحيل الخالصي من العراق؟

ـ المشاكل لا تغادر أراضينا.. حتى من بعد مبايعة الملك على حكم العراق

عام 1921 بمعاهـــدة مع بريطانيا.. وحتى بعد اســـتقلال العراق عام 1930 عن التاج البريطاني وإنهاء حالة الانتداب.. ومعارضة الخالصي للانتداب ســـببت له مشـــاكل وخيمة مع الملك.. فضاقت بريطانيا منه ومـــن دور والده لتنفيه إلى الحجاز.. قبل أن يهرب إلى إيران بعد أن أدّى مناسك الحج.

ـ على ما أعرف بأنّ هذه الاتفاقيـــة كانت بنودها لصالح المملكة المتحدة بخصوص تســـهيلات عديدة لهم.. تخص مرور القوات البريطانية إلى أراضينا في أوقات العمليـــات الحربية.. وبنود تخص التعاون معهم في مجالات اقتصادية عديدة.

ـ هذه المعاهدة مهمة للإنجليز وخصوصًا بعد ثورة العشرين التي كبّدت بريطانيا خســـائر فادحة على أراضينا.. وبعد مؤتمر القاهرة عام 1920 بحضور وينســـتون تشرشل وزير المســـتعمرات البريطاني آنذاك أعلن عن تغيير جذري لسياســـتهم في العراق من استعمار مباشر إلى حكومة إدارة وطنية في العراق... والظاهر أن وجهاء العشـــائر في الجنوب ممن قاموا بثورة العشرين لم يرُقْ لهم هذا القرار.

ـ ومع ذلك فمشـــاكلنا لم تنتهِ.. وفي عزّ هذه الصراعات شكا ملكنا عام 1923 للملك عبد العزيز من قبيلتين منتشرتين في العراق والسعودية مـــن الغارات على طوارقنا في أواخر القيظ، نهبوا بِعارًا وخيرات الله..

ونهبوا تابع الملك عبدالعزيـز الرباعي أثناء تعرضه لغزوة عبر الحدود من العراق فسـلبوا كل ما بحوزته من جِمال ومتـاع.. أعان الله مَلِكنا فبدلًا مـن الوقوف بجانبـه لا نُجيد نحن العراقيين سـوى الرفض والمعارضة.. يسـتر الله من القادم.. فنحن على استعداد أن نقتل الملك وكل من يخلفه.. اسألني أنا عن هذا الشعب.

ـ ولا تنسَ الآن شاه إيران أيضًا.. الذي يتربص بالمملكة من خلال تحريك رجال الدّين ودسّهم بين الناس لإثارة مشاكل لم تخطر على بال أحد.

قالها «جودت» بأسـى واضح.. خفض عينيـه للحظة متفكرًا ثم رفعهما فإذا بهما تعكسـان نظرة قلق.. فتلاعب دبيب الحزن بقلبه حتى أدركت حميدة الموقف قبل أن يتحول المجلس الجميل إلى مأتم .. بعدما رأت بأنّ الصمت بدأ يُشحن بالتوتر فأزاحت كابوس الصمت بكلامها:

ـ إن لم تكفّوا عن حديث السياسـة فسأترك مجلسكم المتهالك.. السياسة خارج الدار وليس هنا.. يُخْصُون الخالصي... يغتصبونه.. يموت الملك أو يحيا ليست مشكلتي بل مشكلة الفقراء.. نحن خارج هذا الموضوع فأرجو أن تكفّوا عن ذكر السياسة أمامي.. ضقت ذرعًا منكما.

كلامها الجريء أذهل الاثنين.. فحـارا بالإجابة واكتفيا بالضحك على طول لسـانها وجسـارتها.. فرمقها «جودت بيك» بنظرة متّقدة لسعت قلبها على الفور.

«جودت بيك» لا يحلو له الـشراب من قلّة إلا من الموضع المبتل بريقها، ويدللها دائماً سواء بوجود زوجها أو أن يكونا على سرير واحد.. فتركن حميدة إلى إهمال زوجهـا.. وتتمنى زواله كما تتمنى زوال صفيّة. جودت بيك يعشـق راحتها المخضبة بالحنّاء. ويرنو إليها بشوق وافتتان، ويصرّ على احتفاظه بها رغم كل شيء.

يرى جسدها الممشوق وساعدها البض فيزهد في النقاش، وعندما تُقدّم له الشـاي يتطاير إلى أنفه رائحة قرنفلية ودّ لو تغوص شـفتاه في لحمها الطريّ، فيتنهد في سرّه بحرقة.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋ ❋

في اليوم الثاني كانت حميدة على موعد مع صفيّة تجلسان في مقهى كلاسيكي فخم على ضفاف شـط العرب.. تحتسيان الشاي.. كان الحديث في بداية الأمر عابـرًا.. تتطرقان لمواضيـع مختلفة وعابرة حتـى تقصّدت حميدة بالتطرق لموضوع شـخصي حول حمل صفية.. الأخيرة أخذها الفضول فهذا الموضوع المهم الذي يشغل بالها طيلة الوقت.

أحست بأنّها كندف الثلج تتطاير بخفّة في الهواء بلا صاحب أو استقرار.. الطفل أهم شيء تفكر به، حتى وإن كان زوجها لا يهتم بها كسابق عهده، ولكن المولود سيغيّر حتماً كل شيء وسيذيب جليد الانعزال بينهما وتعود المودّة لا محال.

قالت حميدة:

ـ الحق عليــكِ.. أخبرتك من قبل أن آخذك إلى الســيّد ســامي وأنت ترفضين دائماً..أحلف لكِ بالمقدّسات أنّ دواءكِ عنده.

ـ ولكنّي أخاف من هؤلاء الدجلة.

انتفضت حميدة من كلام صديقتها.. فانتفضت معها صفية وجفلت على غرار ردّة فعل صديقتها وكأنّ مسًّا شيطانيًّا أصاب الاثنتين.

سارعت حميدة بالاستغفار على الفور وصاحت بصوت خفيض:

ـ كيف تقولين هذا على حفيد آل البيت هل جننتِ؟

ـ آل البيت؟ وما دخل هذا في ذاك؟

ـ هذا سيّد سامي يداوي المرضى بلا عقاقير ويرزق الناس بلا أي شك.. يشفي الصدور العليلة و....

ضاقت صفيّة من هذه الكلمات ثم قالت بضيق شديد مقاطعة باستنكار:

ـ يشفي ويرزق؟ هل يحيي ويميت أيضًا؟

قالت بسخرية.

كادت حميــدة أن تنقض عليهــا لو كان الأمر يســيرًا.. ولكنّها تحاملت على نفســها لتتحمل عناد تلك العاهرة كما تعتبرها دائماً لأنها نافســتها وشاركتها في عشيقها.

ثمّ أردفت صفيّة:

ـ أوليس هؤلاء السادة كما يدّعون بأنهم من نسل النبي.. فيتزاحمون على القاصرات ويستغلون الأرامل والنساء الجهلة ليتزوجوا منهن كمتعة؟ إنّهم سبب تعاسة البلاد وشقائنا انظري إلى ما يفعلون في المملكة من تخريب، ولاؤهم ليس للعراق بل لجهة أخرى ولا أشك في ذلك أبدًا.. لا دين لهم.

ـ صفيّة أنا جربت هذا السيّد وكانت وصفته ناجحة، حاولي أن ترمي بكل هذه الخرافات وراء ظهرك فقط للحظات وتمعّني عزيزتي في وضعك.. أنت امرأة تحتاجين إلى طفل وهذا الحال لا يتماشى مع ما أنت فيه من علاقة متوترة مع جودت الذي يرفض التعاون معك.. سيهجرك يومًا وبلا شك لأنه لا يربطه بك أي شيء.

ـ نعم ولكن ليس بطريقة عمل حرز أو سحر.

ـ وما هو الحل برأيك؟ لعلمك الحرز يفك المشاكل إلى الأبد.. أعتقد لو أن «جودت» يتركك للأبد عندها ستندمين.. تأخذه منكِ امرأة بارعة في الدهاء.. هل هذا ما تريدينه؟

أرعبت حميدة بكلامها فرائص صفية.. تمتمت..

ولم تجد شيئًا مناسبًا لتقوله.. ربما حميدة على حق.. فهي صاحبة خبرة في الحياة وصديقتها القريبة جدًّا..

بدت ساهمة وغامت عيناها وكأنّها ترى كابوسًا وسيأخذ كل شيء منها بلحظة خاطفة.

ـ اعقلي حبيبتي ودعيني أخطط لكِ هذا الأمر فأنا أحبكِ والله.

فكّرت بصمت، تركتها حميدة لتُفكّر وهما في طريق العودة إلى البيت بسيارة حميدة الفخمة.. نزلت صفية متوترة والحزن يعلو وجهها، لم يكن يومًا ذلك الذي ضاقَ به صدرها فاختنقت، بل يومًا بعد يوم بل مئة يوم.. تدرّب نفسها على التعلق بقشّة الأمل وطاقة الضوء حتى ولو كان صغيرًا.. كانت دائمًا قوية ماذا حدث؟

فالبنت قبل زواجها تعيش في كنف والديْها معززة، مدلّلة..كالشجرة وارفة الأغصان، والدها الغني لم يبخل عليها بشيء، فهي كل شيء له، وعندما تقدّم لها الضابط الشاب اغتبطت وطارت من فرحتها، أحسّت بأنه الفارس هو حبيبها وكل شيء في سِفر حياتها.. وسيريحها إلى الأبد.

ولكنّ ما حصل بعد الزواج كان العكس تمامًا..أذاقها المُر بعد أن شبِعَ منها، وعاشت في حومة تعذيب وبؤس، وحيدة لا صاحب لذلك الجسد الشفاف كالزجاج الأملس.. فقدت إحساسها بأنوثتها، تركها، كبدن مُجرّح وروحها كالطائر الذبيح تنتفض.

رُبّما حميدة على حق!

اقترحت سارية على أبيها أن يجلب خادمة لتعاونهم في أمور البيت، فوكّلها أبوها لإنجاز هذه المهام.. فجلبت معصومة.

امرأة سمراء من نسل عبيد متوارثين، كانت تعيش في منطقة الحيانية في بيت زوج خالتها، وكانت تخدمهم بكل نشاط.. يحبونها وتحبهم.. يتيمة الوالدين، تبنّتها خالتها من الضياع.. هي في مقتبل الثلاثينيات، وافرة القدّ، وطويلة، لمعصومة وجه مختلف عن باقي النساء بلونها الأسود، فوجهها منحوت القسمات جميل ويميزه جبين عال، وبشرة لامعة، ولها أيضًا ميزة أثارت في السيد نارًا لم يعرفها من قبل وهي وشم قديم على الشفة السفلى.

كانت بارعة في أمور إدارة البيت والطبخ، وبعد فترة قصيرة من خدمتها في بيت السيّد نمت الألفة بينها وبين أصحاب الدار. كانت تخدم الزوار بكل نشاط.. أُعجب بها السيد كثيرًا وكانت كلّما ذهبت أيام إجازتها إلى بيت خالتها.. أغدقها بالفواكه المجففة والطحين وكل ما تحتاجه الأسرة من مُؤن.

إضافة إلى السائق الذي كان يوصلها على حساب السيد كلما تطلب الأمر لزيارة معصومة أهلها في الحيانية.

كانت معصومة سعيدة في خدمة السيد لدرجة أنها كانت تخاف من أن تحسد نفسها بنفسها على هذه النعمة.. حتى كفّت عن الحديث للمعارف خوفًا من زوال الخير.. حتى حدث شيء تغيّرت فيه الأمور وهاجت النفس المطمئنة ولم تسكن بعدها.. فبقيت الهواجس تجتاحها دائمًا.

في إحدى الليالي شاهدت معصومة السيد يتحدّث إلى شيء غير مرئي.. كان كلما ازداد نعيق البوم ازداد هو غبطةً وإيثارًا لأمر لم تفهمه هي.. جالس في غرفته بجانب الشباك في حركات مبهمة لا تليق بعمره المتقدم.. هل تراه يستمني؟ وماذا يفعل؟ هل يراقب من خصاص الشباك الخلاء المظلم ولماذا؟ مع من يتحدث؟

كان هذا قبل أن يكركر السيّد، مما أثار مخاوفها وتراجعت برعب وهي ترقبه من فرجة الباب..

- هل هو مجنون أم يتكلم مع أرواح آل البيت؟ إنه سيد ولا بد من أوقات محددة يجالسهم ولربما هي ستعكّر صفو الخلوة مع ساداتها.. وما رأته قد يكون تخيلات التعب!

تركت المكان وحال استدارتها انتفضت من رؤية الفتاة الصغيرة واقفة منتصبة أمامها.. وكأنّها ظهرت من العدم.. تقذفها بنظرات

عبوس مليئة بتهديد.. لمعــــت عيناهــا فجـــأة، جعلت معصومة تتبول على نفســـها من شـــدة الهلع.. ثم اســـتدارت الصغيرة ورجعـــت إلى الغرفة بخطـــوات وئيدة.. اعتلـــت السرير لترقد بجانب أمها بهـــدوء، قبل أن يملأ الارتعاش معصومة التي تحاملت على نفسها وأسرعت من خطاها فقط لتصـــل إلى غرفتها المظلمة.. أغلقت الباب على عجل، وأســـندت جذعها عليه.. حتى تهالكت قواها شيئًا فشيئًا وجثت على الأرض وكأن الشيطان كان يلاحقها ساقاها ثِقْلا حديد ورأسها يقرع كالطبل، زفرت بشدّة تبديدًا لخوف قشعر جلدها قبل أن تُتمتم:

ـ أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق.

في لقاء معــه.. أصرّت حميدة بأن تنهي فيها حيــاة صفية، كانت تتحدّث إلى السيد بشــأنها ـ تشــكو إليه بحرقة فاجعة زواجها من عشيقها وعدم إنجابهما لطفل، والسيد يســتمع بمكره المعتاد دون تعقيب إلى حميدة، كأن أنفه يستنشــق رائحة صفية.. يهيج الســيد عندما يسمع حميدة تحترق بلذة الملتاعة وتصف صديقتها بالعاهرة ـ سرقته مني ـ والسيد يستمتع بشتمهـا لصفيّة.. تزيده شــهوة على شــهوة.. يتخيلها عارية تناديه بأن يعتليها.. زوجة الضابط الذي ســيدفع ثمن ما طالهُ من أفعال رجاله الذين بعثهم ليقتادوه أمام الناس إلى المديرية.

يراقب شــفاه حميدة وهي تملي عليه حكايات صفية التي خطفت عشيقها منها، وزادت حياتها تعقيدًا.. ترتعش أناملها حينما تذكر اسمها، ويتهدّج صدرها بنفسٍ مضطرب حينما تذكر اسم عشيقها.. تغوص بذكراه.

والســيد يكتفي بابتسامة من طرف شفتيه، وتارة يمسح بعينين راعشتين جائعتين إلى المزيد من اللذّة.. رأســها إلى قدميها.. ليُركّز نظره في النهاية على ساعدها المُثقل بالذهب.

أردف:

ـ تريدينها لعبة بين أصابعك الناعمة.. تلعبين بها كما تشائين؟

اتسعت عيناها وقالت في غبطة وحقد:

ـ لعبة بين أصابع يدي.. كيف؟

ـ الأمر سهل جدًّا.. بالصبر نزيحها وقبل كل شيء تسمعين تعليماتي لكي لا يشك زوجها.

ـ كيف؟

غطى السـيد كتفه بعباءته وقام من على الأريكة متوجهًا للمكتبة الكبيرة الموجودة في الديوان، وبخطوات هادئة محفوفة بسـكينة عالية في نفسه.. ما إن وصل المكتبة مال بجذعه على مجرّ.. سـحبه برفق.. وتحسس خلفه ثم لامسـت أصابعه كيسًا صغيرًا اقتلعه بخفة.. ثم رجع ليجلس مكانه، أشـار لها بالاقتراب بسبابته.. اقتربت منه حتى تكاد تلامس وجهه تنظر إلى الكيس بوجل.. انتشـى من عطرها ثم حـرّك الكيس الصغير أمام عينيها كأنه ليغريها.. قالت:

ـ ما هذا؟ كيس سكر.

أطلق ضحكة سخرية خفيفة.. ثم أمسك ضحكته قائلًا:

ـ بداخل الكيس وصفة سحرية سيجعلها شخشيخة بيدك.

ـ اتسعت عيناها وسألت وهي تتفحص الكيس بعينين لم تخلوا من الخُبث:

ـ كيف؟

ـ على أن تعتاد هي على جُرعات عديدة وسيكلفك كل كيس مبلغًا من المال.

لم تهتم للجملة الأخيرة.. بقدر اهتمامها بما بداخل الكيس:

ـ لا يهم أخبرني كيف أجرب هذا الكيس.

ـ حسب ما علمت.. صفية تحضر كل يومين إلى دارك لشرب القهوة معك.. تخلطين شيئًا قليلًا منه بالبن أثناء إحضارك للقهوة وترتشفها هي، يوم يومان ثلاثة سوف تأتي من تلقاء نفسها لا تستطيب قهوة في الدنيا إلا قهوتك..حينها أظهر أنا في الصورة تأتي هنا أقابلها وما ستطلبه هي سيكون بثمنه.

ـ قصدك تُدمن على هذا الشيء؟

ـ بالضبط ونقبض على زمام الأمور وتزيحينها من غير تعب.

أزاحت رأسها وقد التقطت الكيس من يده.. تمعنت فيه ثم أطبقت كفّها عليه قبل أن تدخل معصومة بالشاي. لزما الصمت حتى وضعت صينية الشاي على الخِوان وغادرت الديوان بهدوء.

ـ خادمتك الجديدة رهيبة.

ـ من معصومة؟ نعم وجميلة أيضًا.

ـ مريحة؟

ـ لم أجرّبها بعد ـ قال مردفًا بأسف ـ.

شردت قليلًا واشـــتعلت أفكارها على الفور، كما تشـــتعل النار في القش وتلتهمها من الجنون.

لاحظ شرودها فأيقظها السيد من سُبات أفكارها قائلًا:

ـ أراك ذهبتِ بعيدًا.

ـ ذهبت بفكري إلى هذه العاهرة.. كيف ستكون نهايتها.

ـ ســيكون لكِ وحدك لن تنافسكِ أي عاهرة عليه بعد اليوم؛ السيد لا يُخطئ.

ضحكت بصوت عالٍ ثم أخرجت من صدرها محفظة من القماش فتحتها وأخرجت منها مبلغًا من المال وســلمته.. ثم لفّت كيس القماش واضعةً كيس البودرة في داخله وخبأته بين متاهات صدرها الثائر.

ناولت السيد المبلغ، تفحّصه بسرعة فكسا الرضا وجهه ثم دسّ المال في جيبه.

أملاها بالتعليمات وكيف ستقوم باســتدراج صفية إلى إدمان هذا الصنف ببطء لكي لا تثير شكوك من حولها وخاصّة زوجها..

* * * * * *

كان الجـــو حارًّا.. الهواء لافح، والرمل في الخارج يتطاير كشـــهب الســـماء لتخرق الوجوه والصدور.. كان سائق حميدة ينتظر كاظمًا غيظه يلعن سيدته وزوجها، واليـــوم الذي عمل به معهما، متى ســـتنتهي هـــي من الزيارة المباركة، ويرجعان بســـلام إلى البصرة.. ويتخلص مـــن هذا الحرّ.. كان يتســـاءل بغضب وإذا به قبل أن يتم السبّ المتواصل حتى ظهرت السيدة وهي خارجة مـــن الباب ليذوب غضبه وينســـى اللعن، ركض باتجاهها ليفتح البـــاب.. تغيير مفاجئ في لهجة اللســـان الثائـــر.. الآن بدأ يتفوه بكلمات تُعبّر عن الاحترام للسيدة التي قالت له:

ـ تأخرت عليك.. أعرف أن الجو حار وهالِك.

ـ لا لا بالعكس لو حتى كنتِ ستتأخرين اليوم بأكمله لن أكِلّ عن خدمتك.

فتح الباب الخلفي لها لتجلس، ثمّ أغلق الباب بهدوء و أسرع إلى مقعده.. أدار محرك السيارة بابتسامة رسمها على وجهه، لينطلقا ويرجعا من حيث أتيا «البصرة».

رأته يستمني!

يطلب اللذّة الجنسـية منفـردًا.. كالعادة راقبته مـن فرجة الباب وكأنها التقطت شـيئًا لا يقدّر بثمـن.. كان الجميع خارج الـدار عندما بكّرت معصومة بالرجوع من السـوق.. عرجت على غرفة السيد الذي لم يحس بها حتى اللحظة الأخيرة. لم تنتظر ليُكمل شـعرت بشيء من التقزز للمنظر.. فغادرت المكان على عجل.

دخلت المطبخ وتصنّعت بالانشغال.. شردت أفكارها حتى..

وبخطوات هادئة وبابتسامة عابثة على وجهه الشاحب أخذ يقترب منها إلى أن بلغها ليقف أمامها مباشرة.

حدقت فيه بمزيج من الرهبـة والذهول والرعب ليبدأ هو بصوت حمل من العبث أهواءه.. اقترب منها وبـدأ يتمتم بكلمات جعلتها ترتعش.. أغمضت عينيها وشـعرت بدوخة ودوار شـديد.. حتـى بدأت تفقد وعيها.. أجلسها على الأرض.. وجثا معها يتحسس بيده تتلمس أماكن من جسدها.. هنا انهارت معصومة.

نفث هواءه في صدرها، اشــتعلت الجذوة في صدر السيّد.. حتى امتدت النيران إلى أنفه وعقله، تريد أن تقاوم ولكن عبثًا.

أحســت بأنها مُكبّلة وما هي بمكبّلة.. كانت أنفاسها الحارة وهي ممدّدة على الأرض تخمش روحــه.. لم يلحس بل أكل الشــفتين وأخذ يعصر وينهل منهما عصير النشوة.

غاص فيها كــما لم يغص في امرأة من قبلها.. أصغت الشــياطين والجان لصوت اللثم واللهثان.. القرين يبارك للســيد خطواته.. قبل أن يعض شــحمة أذن خادمته.. لتسري الرعشــة فيها وتلغي فكرة أن تقاوم هذا الرجل المُبارك.

يمتص الدماء من عروق الرقبة منتشــيًا من عطر جســدها أعلى مراتب النشوة.. حتى اعتلاها.. اعتلى سماء معصومة.. خرّج جناحيها واعتصر ســحابها الداكن.. تتهدّج أنفاسه ويرتعش جســدها الثائر تحته، وهو لا يكُف عن التمتمات وكلما زاد في القراءة تتسمر معصومة وترغب بالمزيد فاقدة وعيها لا تتفوّه شفتاها سوى بكلمتين:

ـ مولاي السيّد.

وضعت أربع ملاعق من البُن العربي المطحون ثم ملعقتين للهيل المطحون وتلتها كوبي ماء قبل أن تضعه على نار هادئة لتغلي القهوة بهدوء.

كانت صفية واقفة وراءها تبثّ كعادتها شكواها لصديقتها.. ثم تضحكان بعد قليل بلا توقف عن ذِكرِ جودت في صولاته الغرامية معها ســابقًا.. وصلت القهــوة درجة الغلَيان ورفعتها عن النــار قبل أن تفور برغوتها الســمراء.. وضعت فنجانين ودلّة القهوة في صينية فاخرة وتوجهتا إلى الصالة.. سبقتها صفية بالخروج من المطبخ قائلة:

ـ أحسن شيء أن تصنعي قهوتك بنفسك.

ـ طبعًا حبيبتــي القهوة دليل ذوق المرأة.. فقط أنــا من أجيد صناعتها وعلى مزاجي.

استغلت حميدة انشغال صفية بالكلام، فعمدت أن تمشي وراءها وتُصنّعها بانشــغالها لكي تفرغ في فنجــان صفية بعضًا من البــودرة البيضاء.. ثم أخفت الكيس بسرعة.

جلســتا على الأريكة وبدأ الحديث بأريحية عالية ثم بصب القهوة برغوتها الكثيفة الشهية، التي أثارت من عبق عطر الهيل انشراح النفس وارتياحها،

راقبتهــا حميدة بشيء مــن القلق لترى ردّة فعل صفية مــن مذاق القهوة الجديد.. أحسّــت بشيء من قســاوة المــرارة عندمــا انعكس ذلك على وجهها.. حتى عاجلتها حميدة بالسؤال وبشيء من القلق كسا وجهها:

ـ أ... أعجبك؟

ـ نعم بالرغم من مرارتها ولكن هذا ما أحبه من القهوة.. هذه المرّة أعترف بأنك برعتي في صنعها.

ارتاحت أســارير حميدة وهي تلعن في سرّها السيد على دهائه.. وبعد ثلاث ساعات بدت صفيّة منتشــية.. بانت كسندريلا ثملة، ولم يمر الوقت طويلاً حتى تدفقت النشــعة في مساماتها ورأسها.. كان ثوبها قصيرًا جدًّا والساقان ناصعتا البيــاض كعمود مرمر في معبد يهودي، كلما حرّكت ســاقيها انفرج ليكشــف عن لباسها الأرجواني يســتقر هادئًا ما بين فخذيها.. لمحتها حميدة وشهقت بهدوء، حيث نزل مساء ذلك اليوم بغتة.. مساءٌ سقط كستار مسرح كســا الســماء صفاءً وبهاءً، أدركت حميدة أن خطتها نجحت، فها هي ترى التواء جسد صفية في جلستها كســمكة ذهبية تسبح في نهر هادئ.. تحسّ في نفسها بحيوية ونشاط.. حيث أثّرت القهوة على فيزياء جسدها.. ومنحنياته القياسيــة، حينما بدأ عقلها بالانطفاء، وتركت نفسها ليسقط سقوطًا حرًّا بين أحضان النشوة، مسكت برأسها ثم قالت بنعومة الأنثى:

ـ أحس بأنّي أطرق أبواب الجنة.. وأدخل رياضها حافية القدمين، سأطير فوق خضارها باسطة جناحيَّ في شرقها وغربها.

ـ أحسّك ارتحت جدًّا.. وأنا سعيدة لرؤيتي ذلك.

ـ فعلًا مرتاحة نسيت كل ما كان يشغلني من هم.. أشعر بإشراقة جديدة.. هالة من السعادة والثقة تحيط بي.. أنا ملكة اليوم.

زفرت حميدة بغيظها المعهود، زمّت على شفتيها وأكملت في نفسها:

ـ ونحن الوصيفات أليس كذلك؟ بنت العاهرة.

ثم أردفت حميدة:

ـ سيوصلك السائق إلى البيت.. لا تجهدي نفسك حتى يرجع جودت غدًا وستكونين بصحة أوفر.

تخللت أناملها شعرها الحرير الذي انساب على جبينها فزاده تألقًا وجمالًا، أضرمت الحريق في قلب غريمتها وأشعلت نار الهوى بإبطها الذي بان من فرجة الفستان.. وبساقيها اللذيذتين كقصب السكر، رأت حميدة في صفيّة ما لم تره طيلة فترة معرفتها بها.. هل انتقل إليها عدوى المثليات أم أن البودرة مسحورة فطاش بصفية ما طاش من نشعتها؟

أرسلت صفية عينيها للسقف في شرود ثم داعبت السلسلة المتدلية في الوادي المحفور في صدرها الذي يتفتّقُ منه ثديان ناضجان كريمان.. تتكلم بتأنٍّ وهدوء وراحة.. وأنوثة هائمة وبلسان يتحرك غنجًا.. حتى استسلمت جفونها لإغفاءة إجبارية، قاومت الرخاوة بهز رأسها عدة مرات.. أعانتها حميدة على الوقوف ثم نادت الخادمة لإخطار السائق بإحضار السيارة.. وعندما رأت صفية قد استسلمت للنعاس احتضنتها وألقت ذراع صفية حول رقبتها وقررت أن تذهب مع السائق لتضمن سلامة وصولها وهناك في بيتها ستتدبر أمرها مع خادمة البيت.

-44-

البصرة «الهارثة»

ـ 1932ـ

في صباح يوم هادئ.. كان موكب صغير قد استقرّ أمام بيت السيد سامي يتألف من أربع سيارات سوداء فاخرة، عندما نزل صاحب العمامة السوداء بوجه عابس وعينين متهكمتين زادته رهبة على رهبة.

استقبلهُ السيد سامي بحفاوة ثم أدخله إلى الديوان الفخم الذي تغيّر كل أثاثه بعدما أغنته أموال الوافدين إليه وأصبح رجلًا يُقَدّس سِرّهُ في كل مكان.

اتخذ الضيف مجلسه على الأريكة التي تتوسط أريكتين خشبيتين في وسط الديوان.. وجلس السيد سامي على الأريكة اليُمنى باحترام، أما الحُراس فمنهم من انتظر أمام باب الديوان ومنهم خارج الدار.

كان حديث مهم يحمل في طياته سرية تامّة ولا يقبل التأجيل.. من خلال كلمات الضيف الذي تطرق إلى أمور المملكة.

أمّا السيد سامي فنزل عليه صمت الكهوف وهو ينصت بوجل واهتمام للضيف المهم:

ـ بعد ثورة العشرين خان الملك فيصل العهد بيننا.. قمع انتفاضتنا وأهلك رجالنا.. وقع معاهدة سلام بينه وبين بريطانيا ولكي يحمي الموصل من تركيا رضخ وبكل دناءة لسياسة لندن.. بعض مراجعنا الدينية رفضت سياسته وحتى إيران رفضت الاعتراف بدولته.. بريطانيا تضغط على الملك لكي يوافق على سياستها في العراق ومواجهة الانتفاضة في الوسط والجنوب ضد الانتخابات.. ومهازل الملك التي تستهدف رجال الدّين الشيعة على الوجه الأخص.. لا نعتقد بأن الملك فيصل سيطول بقاؤه.. عامهُ سينتهي قريبًا ولكن القادم هو ابنه غازي.. وهذه العائلة لو استمرت بالحُكم فإنهم سيبيدوننا نحن السادة، من ينسى لقاءه بالسيد الخالصي عندما قال له السيد «إننا نبايعك على العراق، على أن تسيروا بالحكم سيرة عادلة، وعلى أن يكون الحكم دستوريًّا نيابيًّا.. وأن لا يتقيد العراق على عهدكم بأية قيود أجنبية».. ووعدهُ الملك خيرًا، كما في كل زياراته عندما يقول للناس شعارهُ البائد «الدّين لله والوطن للجميع».

ـ نعم وأتذكّر جيدًا قبل سنوات عندما ألقى كلمته في المدرسة الجعفرية «بأنه وعد بإنتاج سياسة التسامح والمحبة وقال إنه لم يأت إلى العراق للبحث عن عرش أو فخر وإنّما غايته خدمة العراق.. ولولا إلحاح أصدقائه ومجموع الأمة العراقية.. لما خطر في باله أن يأتي للعراق، وأنّ كل أعمال النهضة التي قام بها أفراد أسرته ليسَ بمطمع في شيء وإنما ابتغاء لوجه الله.

سخر الضيف وضحك بصوت عالٍ ثم أخفض صوته فجأة قبل أن يردف في أمر هام:

ـ وقــد صدّق العراقيون به، يســتخف بعقولهم، هو «يزيــد» الحقيقي.. إنه صورة طبق الأصل لقاتل «الحُسين».. والانتقام منه واجب.. سيّد سامي نحتاج إلى ثورة تكون الأخيرة ونأخذ بثأرنا المكبوت طوال أكثر من 1000 عام خلت ونحكم بعدها بعترة آل البيت وننهي حُكم «بني أميّة» للأبد.

ـ الملك بضاعة متهرئة استوردتها بريطانيا لنا.

ـ لو بات الأمر كذلك سيفنينا الملك.. لن تجد هناك رأسًا واحدًا يعتمر عمامة ســوداء، ألا يكفي أن يحرمنا من حقوق المواطنة ويُشــيع فكرة «الأغلبية الشــيعية الجاهلة».. وبهذا سيقضي علينا وبعد 100 عام لن تجد من نسلنا شــخصًا واحدًا يُطالب بحقوقنا المُغتصبة.. إذا لم نقاوم تطرّف الملك فلن تسلم العمائم من بطشه بنا أبدًا.

ـ أنا لن أتهاون مع سياســة هذا الظالم.. حتى ولــو اضطررت أن أضع كل جهدي لإفشال قرارات ومخططات الحكومة.

هكذا ردّ السيد سامي بحزم.

هنا ابتسم الضيف.. ولوّح عن الرضا بابتسامته للرد.. راق له ما بدر من ردّة فعل من قبل سيد سامي.. ثم مال برأسه حتى كاد أن يلامس وجهه خد الأخير:

ـ ســندعمك.. لدينا ما يكفي من حوزات.. وطلاب، وأناس يساندون كل من يضع يده بيدنا.. تأجيج الانتفاضات.. الفتاوى وكسب أكبر عدد ممكن من مقلّدين ومراجع.. حال إصدار الفتوى ولن يتأخر الشعب في التلبية..

وسـيُلبون بكل فخر فتوى مرجعهم بلا شك.. نعلم بأنك تغلغلت ببركة آل البيت في نفوسـهم.. يحلفون باسـمك ويغدقونك بالعطايا.. كل هذه الأمور قد نصبتك شـخصية دينية لا يُسـتهان بها.. كان الخالصي يقودنا قبل نفيه بحكمته ووقاره.. وإذا فقدت شيعتنا المرجعيات فسيتشتتون كما تشـتت بنو إسرائيل، لدينا أفكارنا ونسعى إلى أن تُطبّق.. ونحارب انتشار أفكار بني عباس والأمويـين.. هذا الملك لا يرحم وقد يهلكنا، فكما تعلم الأوضـاع الخارجية متقلبة.. تارة مع بريطانيا.. وتـارة أخرى مع إيران، وتركيا، أتاتـورك بعد إلغائه الخلافة الإسـلامية وإعلانه الدولة العلمانية صعـد نجمه لدرجة أن أطماعه امتدت لانتـزاع الموصل.. وإيران تطالب بجزء من شـط العرب ولها أهداف إن تتحد مع أهدافنا لقضينا على الملك من الداخل وعلى دولته المدنية الحديثة وجيشها بالكامل.

ـ لقد نجح الوغد في نيل الاستقلال وكسب ودّ الشعب.

قالها السـيد سـامي بوجوم كبـير.. ولكن الضيف قلل مـن أهمية هذا الموضوع قائلًا:

ـ لم يكـد لينال الاسـتقلال لولا النقاشـات الصعبة والحـادّة مع المندوب السامي «هنري دوبس» وكم من مرة تأزمت العلاقات بين البلدين.. سيد سامي علينا بضرب أي حزب يحاول أن يملك أيديولوجية وطنية تريد أن تتشعب بين الناس كـ «حركة الأهالي» التي تسعى الآن لتركيز دعائمها في الداخل.. ولا تنسَ أيضًا أن هناك مشاكل مع الأكراد.

ـ الأكراد؟ ـ تساءل السيد سامي ـ ثم أضاف مردفًا:

ـ لا يربطنا بهم شيء.. يريدون استقلالية إقليمهم عن العراق.

ـ إن اتحدوا مع بريطانيا لربما سينالون الاستقلال.. ولكن قضيتهم قد طغى عليها اليأس بسبب موقف بريطانيا منهم، سيد سامي إن تحالفت الأحزاب وتشعّبت جذورها فلن نطول شيئًا من السلطة.. وسيركلون بنا إلى مزبلة التاريخ.. لا أحد مُطّلع على مذهبنا، إنّنا نحتاج إلى تصدير ثورة باسم الإسلام وفتح باب تشييع واسع كما حدث في العهد الصفوي الذي قطع دابر السُّنّة وشيعت العِباد في إيران.. فالناس إن أجّجتهم باسم «الحُسين» فلن تتوقع ما سينتج من هذا البركان الثائر من عواصف.. لدينا من نعتمد عليهم بالسلاح والمال.. انظر إلى اليهود.. مثّلهم في مجلس الأعيان العراقي «مناحيم دانيال» ثم حلّ محله ابنه «عزرا مناحيم دانيال» كعين في مجلس الأعيان من هذه السنة المشؤومة.. نريد أن نضع يدنا بيدك وفي كل يد كل سيد له شعبية ومؤهل للقيادة.. فلا تدري غدًا من سيحكم ومن سيظهر لتوحيدنا بمباركة مخلص الزمان «مهدينا المنتظر».

مدّ يده بيد سيّد سامي فشدّد عليها ليتم الاتفاق بينهما على قدم وساق.

-45-

بعد ستة أشهر كانت صفيّة قد بلغت ذروتها من الجنون.. جنون الإدمان.. تلجأ إلى حميــدة دائمًا لكي تفيــض عليها من خيرات البــودرة وتغدقها هي بدورها مبلغًا مــن المال. فكل ما يهمها هو مزاجهــا.. تلك البودرة الكريستالية البيضاء لا يقاوم النظر إليها دون التهامها.. تفرغ محتواها على يدها ثم وبشمة واحدة تغرف كل شيء ويستريح رأسها من الضرب.

بلغت مرحلة الاعتماد على استنشاقها.. كلما حاولت التخلي عنها فشلت.. فقد أصابها أعراض الانسحاب الذي لا مردّ من أمره. وصل بها أيامًا أنها باتت تتوســل إلى حميدة لإعارتها كمية ولــو صغيرة لحين رجوع زوجها وينفحها بالمال كالمعتاد.

حميــدة التي كانت تمقتها بدأت ترتاح لما يحــدث لصفية الآن.. تتلذذ من رؤيــة صفية قد ضاعت في متاهات الإدمان.. وأحســت بأن الوقت قد حان لعرضها على الســيّد.. فهو قد طلبها لهُ ما أن تصل صفية إلى مرحلة الإدمان الحقيقية.. طلبها لكي يغرف من رحيق عسلها وينهش لحمها.

رحّب السـيد بالفكرة بعـد أن أبلغته حميدة في زيارة خاطفـة له بأنها تودُّ إحضارها إليه.. ووصّاها بالتريّث حالما يرسـل سارية وابنتها ومعصومة إلى منطقة القُرنة التي تبعد نصف سـاعة عـن الهارثة.. لكي يختلي بالأنثى الجديـدة.. كما كان يفعل دائمًا عندما تأتيه امرأة غلبها الإرهاق أو أمر أعاق عليها لذّة العيش.. ويتيح له فعل المتعة ثم تتوسع الأفعال إلى ذروة الرذيلة.

كانت معصومة في هذه الأثناء تسـترق السمع بحذر واهتمام.. قبل أن تتلقف أذناها اسـم زوج صفية ـ جودت بيك ـ الضابط الذي كان يومًا مسؤولًا في أمن الهارثة.. قبل أن يشـغل منصب أكـبر والانتقال إلى عمله الجديد في مديرية أمن ميسان.

سـمعت معصومة كل شيء، قبـل أن ينتهي اللقاء بين حميدة والسـيد، ابتعـدت بسرعة عـن الباب ولبـدت داخل المطبخ وهي تسـمع وقع خطوات السيدة نحو الخارج لتعود أدراجها مع السائق إلى البصرة.

ظهر فجأة أمامها كعفريت.. انتفضت وكأنها رأت شبحًا.. حدّجها بنظرات ثاقبـة وجامدة.. لا تخلو من حقـد، طال وقوفه أمام بـاب المطبخ، زادها ارتعابًا.. تحاول جاهدة ألّا تفضح أمامه خوفها.. تشـعر أنها قشة هزيلة، لم ينبس السيد بكلمة ولكنه حرّك جذعه بهدوء ومشى إليها بخطوات بطيئة، ثم رفع يديه وأمسـك بقوة كتفها كفك مفترس يمسك بضحيته.. أوجعها وكأن كماشتين قد أمسكتا بكتفها وستخلعه لا محالة.

قال:

ـ أنا السيّد ســامي.. هذه القرية عبيدي.. كلها ملكي.. لم يعاندني إنسان حتى الآن على بلوغي هذا الجاه وإن فكّر أحدهم وفعل فسأفنيه لا محالة.

كانت جبهــة معصومة تتفصّد عرقًــا غزيرًا، وبــدأت الرجفة تأكل منها وتنتشر فيها كما تنتشر النار في الهشــيم.. زاد مــن الضغط وكأنه يُفرغ فيها شحنات الخوف.. مُركّزًا عينيه في عينيها:

ـ إن فكّرتِ بالهروب من هذا البيت فلي رجال سيطولونكِ ولو اختبأت في عرين الأسد.. أيتها العبدة.. حينها...

انتظرت هي بفارغ الصبر لتعرف ما بعد كلمة «حينها»...

وعاجلها:

ـ سأقتلك.

كانت الكلمة الأخــيرة كالنصل غرزها في منتصــف فؤادها، انتفضت رُعبًا.. قبل أن يتحوّل عنها مبتســماً.. ويرتقي الــدرج المؤدي إلى غرفته بهدوء بارد.

لم تكـــن حال وتصرفات صفيّة لِتعجِبَ زوجها ـ جودت بيك ـ بســبب تركيزها القليل والمتشــتت الــذي بات واضحًا جــدًّا.. تغيّرت ملامح وجهها ولم تعد تلك الغادة والفاتنة التي تزوجها قبل سنين.. لا فاتنة ولا غادة كما اعتادها من قبل.. فقد انطفأت نضارتها بشكل ملحوظ.

وفي لقائــه السرّي المعتاد في أحد بيوت حميدة.. أخبرها بكل ما شــاهده في الفــترة الأخيرة على زوجته من تغيرات مقلقــة.. أخفت حميدة قلقها وارتباكهــا، خافت من أن تكون صفية قد وشــت لـ «جودت» عن أمر تعاطيها للبودرة.. ســكتت.. تراقب ردة فعل عشيقها.. لم تطمئن حتى سلتت الكلام من فمه.. عندما أخبرها بجهله بأسباب التغيرات المفاجئة التي ضربــت زوجته فجأة.. ومــا إن تأكدت حميدة مــن أن «جودت» لا يعلم شــيئًا عن زوجته، ارتاحت واطمأنت بأنــه غافل عن كل أمور الأحداث.. ثم قالت بثقة:

ـ لا تقلق فهي لم تتعود غيابك بعد.

ـ سأعرضها على الدكتور.

وكأنّ شيئًا لسعها.. انتفضت قائلة:

ـ لا تحتاج لكل هذه الضجة هي بخير، عندما تتعود على غيابك ســوف تعود لوجهها نضارته.. لا تُدللها لكي لا تنقلب عليك.. فالنساء ما إن يرين دلال الرجال الباذخ عليهن ســوف يثرن على واقعهن.. أنا امرأة وأعرف النساء جيدًا.

ثم مسكته من تلابيبه وسحبته إلى غرفة نومها قائلة:

ـ أنا أريد أن أنســى البغل الــذي في البيت.. وأنا معــك.. وأنت الآن ترهقني بعاهرة.. أنتظرك لتأتي في كل شهر مرة لكي تعوضني الحرمان من الحب.... كفاكَ الحديث عنها.

قبلت شفتيه ثم نزولا إلى صدره، ضمت أصابعه في كفّيها ثم همست في أذنه:

ـ أعشقك في الدقيقة ألف مرّة.

التمســت البهجة في عينيه، رأت قليلًا من الشرود قد غلّفه.. فتحاملت على نفســها بالاحتفاظ على ابتسامتها.. عبســت كما تعبس الأنثى عندما رأته في وضع الجمود.. أشاحت بوجهها في دلال، فلامس ذقنها في حنو حتى أردف:

ـ أنا أيضًا أحبك ولكن لا يجب أن أهملها.

جاء صوتها مرتويًا بالتذمر:

ـ لم أقل لك أهملها، إنها فقط قلقت عليك.. سفرك جديد عليها لم تتعود أن تفتقدك لشهرين، تتأثر كما باقي الإناث ولكنها ستعود كما كانت.

قبلته من شفتيه حتى أثارته، فدخل في صراع مع أنوثتها ونهشها، لكنه لم يؤلمها ولو مرة.. كان يمس أصابعها الناعمة الواحد تلو الآخر.. ومرر أصابعه على ساقيها.. يمس وجهها ويتتبع انحناءات أذنها ودائرًا حول شفتيها بأصابعه الرقيقة.. أدارها.. يعلم جيدًا أنها تحب التدليك.. فدلكها بمفصل أصابعه على عمودها الفقري. يرى انسياب شعرها على ظهرها كنهر من الظلام.. خلع آخر قطعة حريرية من جسدها.. وكان هواء الليل باردًا على جسدها العاري.. فارتجفت شاعرة بالخدر يأكل كل جزء منها.. فألقاها على الفراش ثم غرقا في نشوة عميقة.

-47-

عاد وقت الفجر إلى داره.. يترنّح من السُّــكر.. فكان الظلام والسكون يخيمان على أرجاء المكان، قضى ليلة حمــراء مختلفة عن باقي الليالي وكأنه ضاجعها لأول مرة في حياته..كانت تتســاقط خطواتها في داخله كغيث الأمنيات، اخترقته كرمح ثقب الفضاء.. شامخة.. فاتنة بسحرها.. وعطر جسدها حتى كان يتموج من إبطيها بتكاسل.

كانت العتمة تغلف الصالة فأشــعل نورًا خافتًا، تمشى إلى المطبخ فأطلّ برأسه على الخادمة.. فرآها غارقة في النوم فأغلق باب المطبخ بهدوء.. ثم عاد إلى الصالة وجلس مرهقًا بعض الشيء..أشعل سيجارة، واسترخى.. أرجع رأسه إلى الوراء دقائق وشــهق براحة..ثم اشتهت نفسه أن يأخذ كأسًا من الويسكي من بار البيت.

مسح شــعر رأســه بيده ثم قام نحو البار.. صبّ كأسًا وارتشفها بسرعة ثم الثانية أمّا الثالثة ففضل شربها بتأنٍّ.. رجع إلى مجلسه في الصالة وشرد لحظات في عمله الذي تغيّر فجأة.. لم يكن يريد أن يترك البصرة.. ولكن منصبه الجديد يُحتّم عليه ذلك.. سيبقى على الأقل سنة حسب ما ينصه قانون الخدمة.

صح قد خسر المصدر الذي كان يكســـب من خلاله أموالًا وهدايا تأتيه من وجهاء العشــائر الذين يغدقونه بها في كل وقت، لقــاء إدخال بضائع مهمة كانــت تأتي عبر الحــدود.. مخترقةً الكــمارك..كان يحمــي مصالحهم.. ولو صحّت له الظروف لسبى نساءهم أيضًا.. ما المانع من ذلك؟ ولم ينسَ تهاونه في تهريــب المخدرات التي كانت تدخل من إيران «الترياك» الأفغاني.. الذي ينتشــع الفؤاد منه قبل الرأس.. ويُغرق السوق السوداء بشتى أنواع البضائع المهربة بفضله وبإســناد من «رفعت بيك». ســيطر عليه التعب وتحامل على قدميه لكي يرتقي الســلالم الحلزونية التي تقوده إلى الطابق الثاني من الدار، متى توصله قدماه إلى الغرفة ليتخلص من بنطاله وقميصه.. ويرتدي بيجامته الحرير ويستلقي بثقله المتهالك بجانب زوجته بسلام.

أمسك مقبض الباب الذهبي وأداره ثم دفع الباب بهدوء، تفاجأ من النور يشتعل.. تغيرت قسماته ورفع حاجبيه مستغربًا.. احتلّ أساريرهُ شيء من الهلع.. عندما دخل الغرفة ورأى صفية تحتضن طاولة المكياج مُنكبّة على وجهها بــلا حراك.. أسرع إليها كالقذيفة رفع رأســها وبدأ يهزها برفق قبل أن يلاحظ غبار البــودرة على أطراف أنفها وملطّخةً خدها بكثافة.. كانت.. قد فارقت الحياة.

ـ ماتت؟

قالها وقد جحظت عيناه.

ـ زوجها بعث رســولًا مــن عناصرهِ إلى زوجي ليبلّغــه بالأمر.. ونحن ساعدناه على دفنها.

ـ متى حصل كلّ هذا الكلام؟

ـ قبل أسبوع.. وما إن فرغتُ من واجباتي حتى جئت أخبرك.. ولا سيما أنك كدت تحترق لالتهامها.

اضطرب السيد وتصاعدت أنفاسه في صدره ولكنه يحاول ألّا يُظهر أمام حميدة سوى رباطة الجأش.. ثم استطرد:

ـ اســمعي ما حدث لن يمر على خير، زوجها ليس برجل سهل، في هذه الفترة بالذات ستتوقفين عن زيارتي حتى إشعار آخر.

ضربت حميدة بسخرية على صدرها وأردفت:

ـ مولاي، ألا أزورك وآخذ منك بركات آل البيت.

قالتهـــا بدلعٍ بالغ حتى كادت أن تُدخل يدهـــا في سرواله فمنعها مبتعدًا بضع خطوات.. عبس وجهه وضاقت روحه منها ثم قال:

ـ ستزورينني لكن أنا من سيحدد الوقت.

تصاعد القلـــق في وجهه، الدماء كادت تغـــادر وجهه، على عكس تلك العاهرة التي تشفّت بموت ضرّتها.. ســـألها وكأنه يريد أن يستعلم شيئًا مهمًّا من حميدة:

ـ هل أعطيتها الكيس كله؟

ـ أعطيتها بإلحاح منهـــا.. في أيامها الأخيرة كانت مجنونة جدًّا وكادت أن تفضحني.

ـ أتعرفـــين معنى أن يجدهـــا زوجها منكبة على وجههـــا وملطخة بغبار البودرة؟ زوجها ضابط أمن وليس مواطنًا عاديًّا و..

قاطعته:

ـ لا تقل لي بأنه سيتحقق في الأمر.

ـ هل أنـــت مجنونة، طبعًا ســـيتحقق ولن يترك الأمر وشـــأنه.. بعد أن يتحقق ويكشف الفاعل.. لن أضمن ماذا سينتج عن ذلك من عواقب وخيمة.. خمّني بنفسك.

استنكرت حميدة ما قاله السيد حتى بدأ القلق يخمش وجهها وصدرها:

ـ هل تقصد أنها جريمة قتل؟

هز رأسه بنعم.. وفضّل التزام الصمت.. فلا شهية تبقّت للكلام معها.. فهذه العاهرة أصبحت مملّة بالنسبة له.

ـ استنشقت الكثير.. وماتت.. لا أعتقد ستمر الأيام دون متاعب.

السيد لم يستطع قتل قلقه من الداخل.. لم يكن يتصور بأن الأمور ستصل إلى هذا الحد بسبب غباء حميدة.. التي كانت كالطائر الجميل فانقلب فجأة إلى غراب أسود مشــؤوم.. جلبت لهُ خبرًا لا يدري كيف سينجو منه.. ومن قبضة زوجها ضابط الأمن.

عليــه أن يقطع زيارات حميدة قبل كل شيء.. وإلا فزياراتها ســتؤول عليه بالخراب.. السيد لديه الآن أمور أهم .. اتفق على تنفيذها مع ضيفه وعليه أن يشغل فكره بالتعامل مع التغييرات.

تلفّحت حميدة بملاءتها لتغادر وقد طغى الوجوم على الاثنين..كان ذلك قبل أن تبتعد معصومة عن الباب وتتنصــل بعيدًا بعد التنصّت.. لبدت كفأرة مذعورة تهرع إلى جحرها.

–49–

انبلجَ الفجر، وبدأت الحياة تدب من جديد في يوم جديد.. يخرج الناس لطلب الرزق، بسـطاء يخرجون للعمل اليومي ثـم يعودون مع حلول المسـاء إلى دارهم كشمس مرهقة تنهي دورتها اليومية في الكون الواسع، لكي تؤوب مع المساء المظلم في إغفاءتها المعتادة.

في بداية هذا اليوم البهيج خرج السـيد مع سائقه الجديد، في سيارة فارهة وفخمة.. وفّرتها له جمعية دينية بإيعاز من السيد الحسيني، وكان سيد سامي على موعد مهم مع الحسيني لبحث أمر طارئ وضروري لا يقبل التأجيل، توجه إلى البصرة ليلتقي به ويتباحثا في أمر إضراب وتحريك الناس بفتاوى سـتصدر من رجال المرجعيات الدينية المهمة قريبًا.. ويجب تهيئة الأجواء الخطابية لدفع الناس إلى الاستمساك بمطالبهم.

وصل السيد سـامي إلى فيلا السيد الحسـيني في البصرة.. تلقى ترحيبًا واسـعًا من مُضيّفه.. دخلا الديوان ثم اتخذ مجلسه قريبًا من مجلس السيد الحسيني على الأرض المفروشة بأرقى أنواع السجاد الفارسي.

دخل الخادم وسـقاهما القهوة، ثم انصرف تـاركًا دلّة القهوة والفناجين على الخِوان، كانت نبرة الحسيني النشطة تعكس مدى ارتياحه من اللقاء، وعلامات السرور التي كسـت وجهه كانت تشي بذلك.. فأكسب سيد سامي طمأنينة وثقة أكثر.. نحّى الحسيني عباءته ثم حرّك عمامته السوداء من على رأسـه وحك شعره قليلًا ثم أبقى العمامة مرفوعة في الهواء قليلًا وكأنما ليدع الهواء يتخلل شعر رأسه، ثم أردف:

ـ دخل العراق اليوم إلى عصبة الأمم المتحدة، ونوري سعيد استقال.. وأمور الوزارات باتت بيد ناجي شوكت الآن، إنْ نجح ناجي في إحلال الأمن فلن يكون ذلك لصالحنا أبدًا، الفوضى حاليًّا في بداياتها.. عمّت لتشمل مناطق واسعة من العراق، بريطانيا بدورها تبارك وتدعم العشائر والأقليات لأن ذلك سيساعدها على تنفيذ مخططاتها السياسية، وستظل معارضتها لسياسة الحكومـة العراقية قائمة مـن خلال إضعافها عن طريـق الجيش وافتعال الأزمات، ولاسيما موقف العشائر من قرار التجنيد الإجباري الأخير الذي تفرضه المملكة العراقية على أبنائنا، وفي حال لو طُبّق هذا القرار المشـؤوم فالتمرد والعصيان ورفع السلاح بوجه الحكومة وارد ولن نتراجع.

ـ عشـائرنا معروفـة بنزعتها البدوية، ونشـاطها الاقتصادي غير مسـتقر.. ويميلون إلى نظام يفتقر إلى القوة، ولأنّ الجيش سيهيئ للسلطة فرصة ممارسة مركزيتها، فعلينا أن نقف بوجه التجنيد لكي نُضعف من شوكة الحكومة.

ـ يجب إقناع الناس بأن قانون التجنيد سوف يسحب الرجال من الأراضي الزراعية، وبالتالي فإن الإنتاج للأراضي سيقل.. سيد سامي أهالينا في الجنوب يجب أن يقتنعوا من خلالنا بأن هذه الحكومة لا تخدم مصالحهم وأن دينهم في خطر.. وخطوات الملك تهدف إلى إضعاف الشيعة.

مال الحسيني برأسه وهمس:

ـ بريطانيا تدعمنا، ولاسيما أنها تدعم عشائر المنتفك، وتدعم أيضًا أبرز رؤساء الغراف «صكبان العلي» و«حنون العبيد» وأيضا هذه العشائر لها علاقات بارزة مع بريطانيا وهذان الشخصان لهما رواتب مخصصة من لندن ولن يخذلانا في أن نتحد ضد الملك.

ـ إذن الانتفاضة تنتظر الإذن مِنّا.

ـ الأسلحة ستمر عبر الكويت إلينا، أسلحة بريطانية جديدة وبالتنسيق مع أمراء الكويت، وإيران داعمة لنا أيضًا في خطة ردع الحكومة وإسقاطها.

ـ إن لم نؤجج هذه الاضطرابات، فالنار ستأكلنا.. يجب أن نسدد الضربة جيدًا قبل أن تخمد هذه النار ونكون في خبر كان.

ـ سيد سامي لديك الآن من الأنصار ما يكفي.. وفتاويك مهمة جدًّا لسند الانتفاضة، أنصارك يقدسونك ويجلّونك.. ليس فقط في الهارثة بل في مناطق كثيرة من الجنوب.. ازرع أول بذرة للخلاص لشيعتنا،

وأخبرهم أن شيعة الحُسين في خطر ـ ثم شدّ قبضته ـ أخبرهم بأن أحفاد يزيد باتوا يزرعون منهج الحقد وسيحصدون رؤوسنا.

كان لقاءً حاميًا اشتدت فيه لهجات ولعنات قُذفَ بها على الملك وحكومته، واستمر اللقاء ساعات طويلة من التخطيط على أن يتم تفجير الخطة في ساعة معينة، حتى قطع وقت الغداء عليهما الكلام، تناولا الطعام ثم تكلما بأمور أقل أهمية، وما إن فرغا من الطعام حتى غادر سيد سامي بسويعات فيلا الحسيني، حاملًا منه أذونات بفتاوى كانت قد أعدّت ودُرِستْ من قِبل أعلى المراجع.. يصحب خطواته بمباركة وتأييد موقّع من أغلب المراجع في إيران والعراق.. ومبلغ كبير من المال، كانت قد دخلت في حوزة السيد سامي هِبة السيد الحسيني له.

ولم تمر أيام على لقائه.. حتى كان صوته يصدح بين أنصاره، شدّد على جماعته بنشر خطابات التحريض في الحسينيات مستغلًّا شعائر يزينها اسم ـ الحُسين ـ مستشهدًا بثورته التي تآمر عليها يزيد لإفشالها، كان يُنادي بانتفاضة تقصم ظهر الحكومة الكافرة ـ على حدّ تعبيره ـ ثم أخبرهم بأن آل البيت نادوا بالعدل والمساواة ولن يرضوا بالجور المُسلّط عليهم.. ومن يرفض ذلك فعليه لعنة آل البيت إلى يوم يُبعثون.. فكيف يرضى عنهم الحُسين.. وقتلتهُ يتجولون أحرارًا، ويعيثون في الأرض فسادًا.

واشـــتدّت نار الفكرة وبلغت الزعامـــات العراقية التـــي لجأت لإثارة الثورات والتمردات العشائرية في مناطق الفرات الأوسط وإلى الجنوب العراقي، التي صممت ونادت بإســقاط حكومة الملك فيصل الأول.. والمجيء بحكومة أخرى موالية لها لتبســط نفوذها على الوضع السياسي القائم، فاشـــتدّت المصادمات وأصبحت العشائر أكثر عصياناً مستندين على فتاوى أججت الغضب المكبوت في الصدور وأشـــعلتهم نقمة على نقمة على هذه الحكومة.. فكانت الخُطب في الحسينيات لها تأثير كبير على دوافعهم، حتى تقدّمت الدوافع الدينية على بقية الأهداف، فاقتنعوا من خلال ســموم الخطب الدينية بأن يؤمنوا بأن الحكومة تسعى للانتقاص من شأن العشائر والتهوين من مكانتها.

استيقظ الناس في لواء البصرة على فتاوى أخرى تختلف عن سابقتها تندد.. الإطاحة بالحكومة العراقية من دون أي تأخير، وباتت حركات العصيان تمتد وتكبر كالنار في الهشيم، في ناحية ـ المدينة ـ وقضاء ـ القُرنة ـ في البصرة شـــاركت بكل ما أوتيت من قوة بشريـــة لتنفيذ أوامر المراجـــع الدينية.. حيـــث بدأت في هذه المناطـــق حركات العصيان قائمة على قدم وســـاق، بينما المحاكم العرفيـــة كانت منهمكة في تصفية قضايا الثائرين في الناصرية والديوانية، وممّا زاد من النار لهيبًا هو رفض الملك الاســـترحام المقدّم من وجهاء العشـــائر بإعفاء أبنائهم من التجنيد الإجباري.. فزادت من ثورة العشـــائر ولكنها كما بدأت بسرعة، تمت إبادتها بالسرعة نفسها.. من قبل السلطة التي أبدت غضبًا عظيماً عندما ضبطت لدى العشائر كميات كبيرة من البنادق البريطانية كانت قد هُرّبتْ إلى تلك المناطق المنتفضة.

تلقى ـ جودت بيك ـ أمـــرًا بالتوجه إلى الهارثة لإخماد نار العصيان الذي اندلع فجأة.. لكونه عمل هناك لفترة طويلة ويعلم خبايا وأسرار ناسها، وما تُخفيه صدورهم من أمور.

وأول عمل قام به في ـ القرنة ـ كان حضوره في اجتماع طارئ.. في ســاعة متأخرة من الليل مع مدير الأمن ومدير المخفر ـ سعد التكريتي ـ كانت الجلســة يخيم عليها الهدوء ولكن سرعان ما نفضهم وروّعهم إطلاقات نارية أطلقتها ســيارة مجهولة ســلتت بســلام بعد أن تركت جثث عدد من القتلى لحراس المخفر، تحطّمت عــلى أثر ذلك الهجوم صخور وجوه الضباط الثلاثة ومن معهم، حتى أمر المدير مســتجيبًا لحقد كان يخمش بصدره وبضروس تطحن نفسها.. بشــن وابل من حملات الاعتقالات على الغوغائيين.

زارهُ في ديوانه، فاستقبلهُ السـيد سامي بحفاوةٍ أكبر مما كان يستقبله قبل أن يبرق نجم ولايته في المنطقة كمرجع دين.. وواساه على مأساة زوجته أيضًا، هذه الزيارة المفاجئة التي قام بها ـ جودت بيك ـ أربكت السيد في البداية، ولكن ما إن شمّ رائحة السلام حتى احتوته الطمأنينة وجلس مع الضابط ينصت للموضوع المهم الذي جاء به.

ـ لطالما اشتقت إلى اللقاء بك مجددًا سيدنا، ويؤسفني أن زيارتي جاءت في مثل هذا الوقت العصيب.. وسأكون ضيفًا على مخفر الهارثة حتى إشعارٍ آخر.

ـ لا أبـدًا.. أعلم أن البلد يمر بوضع حـرج ويعلم الخالق أنني أحاول جاهدًا أن أهدئ النفوس قدر المستطاع.

ـ يريـدون عبثًا أن يلغوا التجنيد الإجبـاري، وإبقاء المملكة ضعيفة، لا أعلم كيف يفكرون، ولكن الأمور تسـير نحو الأسوأ.. الملك جاد في إخماد نـار الفتنة ونحن بدأنا بحملات الاعتقالات التي ستسـاعد في القضاء على المتمردين.

لم يُعقّب السيد.

بل ظلّ ينصت ظاهريًّا، وفي سرّهِ يلعن الملك وأبا الملك والضابط بل وكل أجهزة الدولة.

- سيد سامي نريد أن تعاوننا في هذا الموضوع، فكما نعلم أنّ لك سلطة مطلقة على هذه المنطقة والناس يلتزمون بفتاويك والسلطة المركزية في بغداد واثقون منكم وبمقدرتكم على إقناع المتمردين بالكفّ عن التمرد والعصيان.. وسنوفّر بذلك إراقة المزيد من الدماء التي طالت وستطول عناصر الحكومة والشعب.

- سأعمل جاهدًا لكي أساهم في تقليل المظاهرات، فأنا لا يعجبني أن أرى دماءً تُراق لأمورٍ كان من الممكن أن نحتويها بالعقل.

لم ولن يَصْدُقَ السيد في الحديث البتّة، يناور كعادته، يريد أن يدفع هذا الضابط بعيدًا عنه.. بلسانٍ ذرب وروح متعطشة لقتله، ولو طالت يداه لفتكهُ ودكّ عنقه.. ينزّ سُمهُ في جسد كل شخص يقف في طريق مجده، يملك روحًا فاسدة كمذر البيض فقصَ قبل أوانه، أو كقطعة لحم فاسد، فلم تُبقِ وقاحاته نقطة رحمة في نفسه المريضة.. لم يخلق من طين.. بل من فضلات الشياطين، فهو كإبليس يتكلم مع الناس على هيئة رجل دين يعتمر عمامة سوداء.

بعد ساعتين غادر الضابط الديوان، أسرع من خطواته ورافقه السيد إلى الخارج.. قبل أن تنسحب معصومة من خلف الباب وتغيب كالفأرة في المطبخ.

-52-

في اليوم التالي:

كانت شـمس الظهيرة قاتلة، حينما فكّرت معصومة أن تسـتغل غياب السيد الذي برح الدار إلى مكان مجهول للقاء مهم بينه وبين أحد المراجع مـن ذوي النفوذ المهمة، أخبرت سـيدتها بأنها ذاهبة إلى السـوق لشراء حاجات ناقصة تحتاجها للوازم المطبخ، لم تمانع سارية التي كانت مشغولة بتجديل ضفيرة صغيرتها.. الجالسة في حِجْرِ أمها.. ساكنة، ملتهية بقضم قطعـة من الخبز.. أرخت الأم الضفيرة على كتف ابنتها بعدما انتهت من جدلها وقالت:

ـ لا تتأخري فاليوم لدينا عمل كثير.

ـ حاضر خانم.

لاحت منها نظرة إلى الصغـيرة الهادئة، فحدجتها الأخيرة بنظرة جعلتها ترتجف حتى ضربت الرعشة أطرافها.. فنظرتها كفيلة بمضاعفة الرعب في داخلها.. كادت أن تقضي على روحها.. فلملمت نفسـها وخرجت.. انسلتت بسرعة خاطفة من باب الدار وفي أذنيها هسيس يقول:

ـ الأفعى السوداء تنتظرك.

لم تعر اهتمامًا بادئ الأمر فظنته مجرد أوهام، ولكن ما إن بلغت السوق الشعبي حتى بدأ الهسيس يضربها كالسوط على جسدها.. كالطرق المستميت على رأسها:

ـ الأفعى السوداء تنتظرك أيتها العبدة.. سوداء مثلك.. كأنها توأمكِ.

تحاول عبثًا أن تتجاهل الصوت حتى دار بها السوق وكأنّ ثُقلي السوق والسماء سيقعان عليها.. تحثُّ الخُطى أملًا أن تصل إلى المخفر.. المسافات تمتد بطولها ولا تكاد تنتهي، وكأن الزمن تغير.. والطريق إلى المخفر يمتد وعطشها يزداد.. وكلما توقفت لتشرب زاد عطشها.. تفصد جبينها بالعرق وكلما غسلته زاد العرق وزادت معها حُرقة في بطنها. سلكت الطريق الترابي العاري إلا من الرمال والأشواك.. جلست تحت ظل شجرة استجلابًا للراحة.. ثم عاودت السير.. متعبة ولكنها تشعر بأن شيئًا من الألم قد زال، فأحست بالراحة.

بعد عناء وصلت إلى المخفر.. كانت قلقة فماذا لو ذهب تعبها أدراج الرياح ولم تجد ـ جودت بيك ـ مشكلة كبيرة.. فلن يكون بإمكانها أن تترك الدار مرة أخرى دون ذريعة مناسبة، فرصتها الآن لكي تُفرغ كل ما في جوفها من كلام.. أدخلها الحارس إلى غرفة الانتظار.. طلب منها أن تنتظر وسيحضر قريبًا من يأخذها للقاء ـ جودت بيك ـ.. جلست وأسندت رأسها على الحائط تنفث الهواء الساخن من منخريها وفمها لتستجلب راحة مفقودة.

لم تنتظر كثيرًا حتى ظهر ـ جودت بيك ـ كالشبح من العدم.

كانوا ثلاثة والسيد سامي رابعهم.. يعتمرون العمائم السوداء، ولحاهم كحاخامات اليهود تغطي وجوههم.. تتخلل اللحى شعيرات بيضاء تسللت بحكم الزمن.. مضيفةً الوقار لهيئتهم. جلسوا جميعًا في ديوان قصر كبير يحرسه بعض الأشخاص. الجلسة سرية وطارئة لدرجة لا تحتمل التأجيل.

بادر أحدهم:

ـ نشكرك لانضمامك معنا، وعلى كل ما قدمته من أمور خدمت الانتفاضة.

ثم بادر الثاني مُربتًا على حِجْر السيد سامي بهدوء:

ـ كلنا يجب أن نتحد في سبيل إرساء دعائم الدّين الصحيح، وجهادنا ضد الظالمين هو هدفنا.. وإكمال لرسالةٍ أبدية لمولانا أبي عبدالله الحُسين.

«سلام الله عليه» تمتم الجميع، ثم أكمل الثالث:

ـ ولهذا كُلنا قد قررنا بالإجماع أن نولّيك على أمور العامّة من شيعة أهل البيت في الجنوب لتكون مرجعًا دينيًّا يمثلنا داخل العراق بدلًا من الحسيني.. فكما تعلم لا نستطيع أن نعلن ذلك علنًا خوفًا من بطش الملك ولكن سوف ننقلك إلى إيران في حال لو قبلت أنت هذا القرار.

ـ إيران؟

ـ حفظًا على سلامتك لقد وفرنا لك هناك سُبل العيش الكريم لك ولابنتك وحفيدتك حتى تتحقق الأهداف وترجعون للوطن.

ـ ولكن!... إيران!... والشاه؟

ـ الشاه لن يتعرض لك ولا لأحد من رجالنا ما دمنا لا نضر أحدًا.. كل ما ستفعله هناك هو بناء أساس قوي تستند عليه، فتاويك ستنطلق من هناك، فأنت لن تستطيع أن تمارس نشاطك هنا وخصوصًا بعد مقتل الحسيني.

الكلمة الأخيرة كانت كافية بتقليص وجه السيد سامي، فجحظت عيناه قلقًا:

ـ السيد الحسيني؟

بهت السيد من الصدمة، يريد وقتًا لاستيعاب ما يقال الآن، تبخر الكلام، ثم وبملامح تملؤها الإرادة وصوت قوي قال الأول:

ـ أنت من يجب أن يقود الحشد، هم يعتبرونك سيدهم ويرون فيك القوّة لجمع شمل الشيعة.. هم بحاجة لمرجع قوي.

قال الثاني:

ـ لقد رأينا ذلك من خلال الانتفاضة.. أبناؤك قاموا بأكبر انتفاضة على الإطلاق وتقدمت بحماستها على بقية المناطق الجنوبية.

تردد عينا السيد في الحضور ثم قال:

ـ هذا شرف كبير لي ولكن تولّي مثل هذه الأمور س..

قاطعه الأول ويبدو أنه الأعلى شخصية بينهم:

ـ سيد سامي... الحسيني خائن.

–54–

لم يكن سهلًا ما قالته معصومة من اعترافاتٍ كانت كالشياط ضرب أنف ـ جودت بيك ـ فما إن سمع ما سمع حتى صعد الدم إلى رأسه وكزّ أسنانه في صمت، فمعصومة باغتته بأخبار لم يتوقعها قط، انتفخت عروق رقبته وهو يســتمع لها تتحدث عن ـ صفية ـ لم يتمالك نفسه، توقف عقله عن التفكير، تحجّرت عيناه وتيبســت أطرافه إلا من الأصابع.. ما إن كوّرها حتى طاح بقبضته الغاضبة على سطح المكتب ليُصدر صوتًا قويًّا ارتعبت على أثره مفاصل معصومة.. وبعث بقلب معصومة إلى الجحيم.

* * * * * *

عندما جلب السيد ســامي معصومة إلى الدار بغية أن تخدم لهم وتتكفل شــؤون إدارة المنزل، ســارع ـ جودت بيك ـ وبأمر من مدير الأمن بأن يُجنّد معصومة بغية الحصول على معلومات تؤكد تورط السيد بانتماءاتها المشــبوهة وتعاونه في إشعال الأحداث التي تمر بها البلاد.. وكان يقابلها أثناء فترة إجازتها في البــصرة.. وكان يؤكد أيضًا عليها أن تحتاط من كل خطوة، لأن السيد ذكي جدًّا ولن تخفى عليه خافية.

اقترب منها قائلًا بغضب:

ـ معصومة إن كان كلامك كذبًا، فسأعلق جسدك في سقف الغرفة.. أقسم بالله.

ـ سيدي أقسم لك إنني أخبرتك كل شيء.

ـ لا تعتقدي بأني تركت البصرة وأني رحلت عنها للأبد.. كانت العيون تخبرني بكل صغيرة وكبيرة.. وإن كان السيد فعلًا كما قلتِ لي مشعوذًا وزير نساء فذلك سوف يكلفك حياتك إن ثبت عكس ذلك.

ساعتان مضتا، ولكنهما كانتا سنتين.. فلم يكن من السهولة الاستماع بأعصاب باردة لأقوال معصومة خصوصًا أنها ذكرت اسم زوجته، وكيفية استدراج حميدة للإدمان كانت ضربة ثانية له، ففي ملامح ـ جودت بيك ـ هول الحقيقة والغضب يتصارعان، سمع كل شيء، وتمنى لو لم يسمع ما سمع، فالقضية مسّت آل بيته.. كأن الأحداث خُططت لكي تنهي حياته ومستقبله.. ولكن «حميدة»؟

ومن بعد؟ السيد سامي؟ ولماذا؟

ما قالته معصومة ليس بالشيء العابر، فقد جلبت له سر موت شخص يخصه «صفية».

-55-

غــادرت معصومة المخفر بسرعة، قبل عودة ســيدها.. تركها ـ جودت بيك ـ ترحــل.. ولكنها لو تُدرك ما تخبئ لها الرمــال من فظاعتها لكان بقاؤها في المخفر أرحم.

على رمال الهارثــة الحارقة، قطعت طريقًا طويلًا لعلهــا تصل بدون تأخير إلى السوق.. فلهيب الشــمس الحارقة يحول دون وصولها بسرعة.. ويؤخر تقدمها البطيء.. جلست تستظل تحت الشجرة قليلًا لتعاود المشي بعدها.. تأمــلُ أن تصل في الوقت المناســب، تتمنى بأن يتأخر الســيد ولا يرجع مبكرًا لكي تتقي أسئلته..قامت ثم طوت مسافة أخرى بمشيتها.. تتخبّط ســاقاها بتراب الأرض، فيرتفع الغبار ويلوث عباءتها، تمشي كمجنونة حتى نهشها التعب والعطش مجددًا، فأحست بضرورة الراحة مرة أخرى واتقاء حرارة الشمس التي ألهبت وجهها الأسود.

ولم تمانع أن تأخذ قسطًا من الراحة، كقيلولة أخيرة.. تحت ظل شجرة باسقة، بسطت فروعها عاليًا، تزين الخلاء بأوراقها الخضراء.

كانت مسترخية وقبل أن تنتبه إلى الشيء المنتصب أمامها.. انقضت كالسهم أفعى سوداء تتوسط أوداجها المنفوخة دائرتان حمراوان كعينين غاضبتين نبتتا من نار الجحيم.

همست بفحيحها على غفلة ثم رشقت نابيها في رقبة معصومة، لتفرغ ذلك السم اللعين في لحظة، حاولت دفع الأفعى جزعة وبيد تأخرت وصرخة يأس لم يسمعها أحد، حتى وقعتا على الرمل فتلوت الأفعى ثم انتصبت مجددًا لتعلن عن هجوم ثانٍ.. جحظت عينا معصومة، تكومت لا تستطيع أن تذود بيديها لدفع الخطر، فالسم بدأ ينهشها، ثم انتصبت الأفعى تُحدّج في عينَيْ معصومة وكأنها تبعث لها برسالة ذات مغزى.

وفي سرعة اخترق أحد أنيابها رقبتها، سخونة في موضع اللدغة، ثم اضطربت أنفاسها مع ضربات قلبها، زاغ بصرها، خدرت أطرافها قبل أن ترمش بعينيها.. تخيل لها بأن الأفعى انشطرت إلى اثنين.. انتابها الغثيان قبل أن تقترب الأفعى منها، والتقطت أذنا معصومة آخر فحيح ستسمعه في حياتها:

ـ هذا جزاء من يحاول الولوج في حياة تابعينا.

ثم لثمتها الأفعى بسرعة في وجهها ثلاث مرات لتقنعها بأن الموت هو الحاضر الوحيد الآن.

ـ سيد سامي مغادرتك للعراق باتت أمرًا ضروريًّا.

عقّب الثاني:

ـ كل شيء جاهز في إيران.. وفّرنا لك كل مقومات الزعامة التي ستساعدك في تثبيتك كمرجع ديني.

قال الثالث:

ـ الدار والمال والأعوان، ونفوذك سيمتد من إيران إلى العراق وأيضًا ستحكم مناطق شاسعة في المستقبل.. وسنعمل على ترسيخ هذه المخططات على أرض الواقع ولا تقلق من دعمنا لك، سيد سامي العيون باتت تراقبك مؤخرًا ولاسيما بعد هذه الانتفاضات التي قامت ضد الملك وجلاوزته، وسيحاولون اغتيالك لا محالة.. ونحن في أشد حاجة إلى مرجع ديني يُقتدى به بين صفوفنا.

ـ فجر غد سيحضر أحد من أتباعنا.. لينقلك إلى مكان آمن ومن ثم تغادر فورًا أرض المملكة إلى إيران.

كان الأمر مفاجأة لم يتوقعها السيد، مغادرته للعراق في ليلة وضحاها، وزيادة العنف الذي أدّى إلى قلّة الأمان، ولا شك ستؤثر كل هذه المجريات على مستقبل السيد الذي يرنو إليه.. وبلا شك إذا بقي في العراق فهو هالك.. فالرحيل كما قالوا مهم.

مدّ المعمم الأول يده وبسـط شيئًا ملفوفًا على الطاولة، أزاح القماش عن سكّين لامعة، مقبضها ملفوف بقطعة كتان خشن ونصلها المشحوذ على حجر، تطلّع السيد بعينين تلمعان ولن ترفضا رؤية مشهد قتل قريب، ثم قال الرجل الثاني بابتسامة خبيثة رُسمت على شفتيه:

ـ الحُسيني وأنت ستستقلان نفس السيارة، لقد دبرنا أمر لقائه بك صدفة وخططنا له منذ شهر، ما أن ينطلق السـائق بكما حتى سيتم التخلص منه في منطقة تم التخطيط لها من قبل السـائق، فهو قاتل محترف مـن أتباعنا المخلصين.. ثم سيعود بك إلى الهارثة، وفي الفجر ستقلكم سيارة خاصة إلى إيران.

ـ ولكن عليَّ تمهيد الأمر لابنتي.. فخبر الرحيل سيفاجئها.

ـ لـن ترفض إذا علمت بـأن بقاءكم في العراق يهـدد حياتكم فهي أم وستعي ذلك ـ قال الأول ـ.

ـ الحسـيني الآن في لقاء مع أحد المسـؤولين، خطة مدبرة لاستدراجه، سـيُحضره السـائق إلى أمام الدار ليقلكما في نفس السـيارة إلى المكان المقصود، لتشهد على ذبح الخائن.. هذا السكين.. مسموم.

سأل السيد بخبث:

ـ هل لي أن أطلب شيئًا؟

تبادلت النظرات في العيون متسائلة، ثم أردف الأول:

ـ تفضل.

ـ هل من الممكن أن أغرز النصل في الحسيني بيدي.

ابتسمت الوجوه في رضا ولم يعارض أحد على الفكرة.

-57-

ها هي السـيارة تنطلق بهما بعيـدًا عن حدود البـصرة، تحمل رجلين مهمين.. أحدهما رجل أصدقاؤه من الجن والعفاريت، يُسخّر قرينه في قضاء ما يلتوي من الحاجات، شـهرته بذلك تجاوزت المدينة ووصلت إلى أقصى الحدود، وتسامع بها أهل المدن والأرياف، حتى أخذوا يسعون إليه زحفًا.

والثـاني: رجل دين له صولاتـه وجولاته مع الدولة لكـي يُحافظ على الرسـالة التي أنيطت به من قبل جمهوره من الشيعة لنصرتهم حتى ظهور إمام الزمان «المهدي المنتظر».. وسيسـتميت من أجل نشرها بين الأمم مهما كلّفه الأمر.

على بُعد أميال من البصرة اختار السائق وبحنكة شخص له خبرة واسعة في مجال التخطيط، طريقًا صحراويًّـا مقطوعًا شريانه عن الحياة تمامًا، لا يصله إلا الجان والشـياطين، لجأ إلى طريق مقفر مسدود بحجة عطل في السيارة، كان الحسيني مشـغولًا بالحديث ولم ينتبه لانعطاف السائق إلى

الطريق المهجــور إلا بعد فوات الأوان ولكنّه لم يشـــك بشيء، فقد كان مغتبطًا باللقاء المفاجئ الذي جمعهُ بالسيد سامي.

ترجلا من السيارة قبل أن يبدأ السائق بإصلاح العطل المزعوم.. فانكب بجذعه على محرك الســـيارة يتظاهر بالإصلاح الوهمي.. وقبل أن يبتعدا بقليل.. فطن الحسيني بتذكير السائق قائلًا:

ـ لا تنسَ بأن لديك عملين اليوم.. إيصال سيد سامي إلى الهارثة ومن ثم تتجه بي إلى النجف الأشرف حيث يجب أن أكون.. أعانك الله على هذا العبء الثقيل يا بني.

طمأنه السائق بأن كل شيء سيكون على ما يُرام.. وباشر عمله مُخربشًا خربشات ولطشات توهم الحسيني بأنه يحاول أن يُصلح العطل.. حتى ابتعدا عنه.

*****

كان السيد سامي يمشي بمحاذاة السيد الحسيني، بتأنٍّ يستمع بخشوع إلى ما يقوله صاحبه:

ـ سيد سامي.. أنا وأنت نســتطيع أن نكون قوّة كُبرى.. لدينا من الأنصار ما يكفي لتمهيد ذلك.. وحدتنا كافية لإقامة حزب ينصرنا.. حزب ذكره الله في قرآنه ووعدهم بالنصر.. نقيم بعدها إمارة حُكم في الجنوب العراقي ونُطلق التشيع بعدها إلى الدول المجاورة.. يتشيع بعدها بلد بعد بلد.. فكل شيء...

هنا تباطأ السيد في خطواته وترك الحسيني يسبقه قليلًا بخطواتٍ ثقيلة.. وبعينين زاجرتين أغمد النصل في ظهر الحسيني وبيد أخرى كتم أنفاسه بقـــوة ليمنعه من الصراخ أو المقاومة.. تلقى الحســـيني الطعنة فتقلصت ملامحه، حتى انثنت قامته في صدمة، بذهول تأمّل دماءه الساخنة، أحسّ بالدماء وهي تتدفق حول السكين الغائر في لحمه، جثا على ركبتيه فوقف السيد سامي أمامه يرمقه بهدوء قبل أن يكز بقدمه صدر الحسيني ويسقط على التراب فاغرًا فاه.. ممرغًا وجهه بالتراب.

جســـمه يضطرب ويتخبط ويتفجــر منه الدم في قـــوة كانفجار الماء من الينبوع، الجسم يضطرب ويتخبط، الدم ينفجر ولسانه يضطرب ببعض الحديث في فمه، ثم هدأ ذلك الجسد المضطرب، وسكن اللسان المتحرك، ويخف تفجر الدم.. حتى امتلأ الجو بســـكون الموت، والسيد سامي قائم أمام الجثة كالشيطان قبل أن يعود أدراجه إلى مكان السيارة حيث السائق كان بانتظاره.

كادت ســارية أن يغشى عليها من الأخبار الأخيرة التي جاء بها والدها، الهــروب وترك كل شيء في مكانه، رفضــت في البداية ترك الدار فآثرت الموت فيها ولكن ما ذنب ابنتها؟ ســتكون كشــجرة اقتلعت جذورها، فأقنعها الســيد بأن العصيان الأخير للحكومة من قبل الشــعب سوف يجر لهم ويلات الاعتقال والموت.. لأن الحكومة بدأت بشــن اعتقالات عشوائية على رجال الدّين وستطوله لا محالة أيدي رجال الملك.. علاوة عــلى ذلك فإن معصومة قد وشــت لـ«جودت بيــك» كل شيء رأته في البيــت.. وأنها كانت تتنصت على أسرار والدها.. لم تتفوّه ســارية بشيء ســوى أنها أدلت بفكّها السفلي إلى الأرض، ربت على كتفها بحنو يحاول أن يُطمئنها بكلمات رنّانة:

- لا تقلقي فلنا دارٌ كبيرة في إيــران، أكبر من هذه.. مرجعيات مهمة قد وفّرت كل شيء وسنكون بأمان بدعمٍ منهم.. ثقي في والدك يا ابنتي.

دفعهــا برفق لكي تصعد إلى الأعلى وتلم متاعها لينطلقوا ســاعة الفجر ويبتعدوا عن القرية إلى الأبد.

-59-

في اليوم التالي عندما حلّ الغروب وكاد الليل أن يسدل ستاره على القرية:

توّجه ـ جودت بيك ـ بسـيارته إلى بيت السيد سامي..كان يقودها بسرعة عالية وقد تطاير الشرر في تلك العينين القاسـيتين.. ترتعش أطرافه وكأن أسدًا غرفَ صدره ببراثنه ممزق القلب وأخرج أحشاءه، إنه الوقت المناسب لاستدراج السـيد إلى إحدى المناطق الخالية وإفراغ طلق ناري في منتصف جبينـه، كان يتصرف كالممسـوس، صرعتـه الأخبار التـي جلبتها تلك المشؤومة معصومة، وما أن يفرغ من السيد حتى يقضي على أمر حميدة.. كل شيء بأوانه.. كان يجاهد ليسحب نفسًا إلى رئتيه، وكان الوجه شاحبًا وكأنه فقد لحمه وبرزت عظام وجهه.. مملـوء بدموية الغضب، وصل إلى المنزل ثم ترجل بسرعة من سيارته.. تمّم على سلاحه، بينما كانت الكلاب السائبة ترقبه بنظرات مدهوشة..كانت الكلاب جالسة في الساحة الخارجية للدار وكأنها مستأنسـة لرحيل السـيد، وفي كل لحظة كانت الريح الصفراء تهب فتثير التراب الجاثم على الأرض.. مد خطواته ليتجه صوب الباب.. ضربه بعنف، حتى اشرأبت الأعنـاق من البيوت المجـاورة للطَرقات العنيفة، شبابيكها مزدحمة بنساء وأطفال يتابعون المنظر ولا يجرؤون على الخروج..

هذه كانت توصية السيد لهم قبل أن يترك المكان.. كان يعلم بأن يد الدولة ستطوله يومًا.

رحل السيد.. تصحبه عناية الله وآل بيت الرسول.. هكذا كانوا يتمتمون من وراء ضلفة الشُّباك.. يتمتمون بهمسات خائفة وقلقة.. وعيونهم لا تكاد تفارق مشهد الضابط الثائر.

لم يجرؤ أحد على فتح الباب ومنع ـ جودت بيك ـ من محاولة اقتحام البيت.. وعندما رأى الضابط بأن أحدًا لا يستجيب لطرق الباب.. رجع إلى الوراء وبدأ بركل الباب الخشبي القديم.. لم يفلح في كسر الباب فاستعان بمسدسه ليطلق رصاصة صوب أكرة الباب كانت كفيلة لفض قفل الباب وفتحه على مصراعيه.

عندما دخل الدار... كان السكون يُغلّفها إلا من صرير الهواء الذي يمر عبر الممرات في الداخل.. كانت كالمهجورة يسيطر على الداخل إليها الرعبُ.. مكانٌ بات موحشًا للغاية.. مسكونة تصرصر فيها الريح عبر النوفذ السوداء.. كأنّها تحرسها أرواح الموتى.. الظلام النسبي كان يضيف على الدار رهبة تكاد تسيطر على مفاصل الضابط رغم شجاعته التي ولّت الآن.. أصدرت الأبواب الخشبية طقطقات خفيفة وكأنها تصرخ من الوحشة وتبكي صاحبها الذي غادرها.. الأرواح التي تسكن الدار بدأت تستيقظ غير مُرحبة بالزائر.. تبُث القشعريرة في نفسه وتسخر منه تارة وتنتحب حُزنًا تارة.. وكأنّ الحيطان بدأت تتكلم

وتثور.. بل كل مفاصل البيت بدأت تستنكر وجود الشخص العدو.. تمشّت الهمهمات في فراغ البيت.. فأشباحها بدأت تهمهم بكلمات مبهمة تَصدّع لها رأس ـ جودت بيك ـ.. انتفخت عروقه وكأن أيادي خفيّة تعاونت على نفخها.. انتفخت عروق الوجه فجأة وتلتها الرقبة والعينين وأنذرت بانفجار مريع.. حتى انبثق الدم من أذنيه وعينيه.. وكلما تأذى الضابط، زادت حدّة الهمهمات، أنذرت المجني عليه بالموت المُحتم.. لا رحمة في قوانينهم من يلِجها إما أن يكونوا معه أو عليه.

إن كانوا معه أسعدوه وأضافوا لحياته سعادة الدنيا التي يتمناها.. وإذا نقموا عليه حلّت عليه لعنة ما بعدها من لعنة.

تزايدت همهماتهم حتى بدأ جسده الهالك يرتج والدماء لا تتوقف عن التدفق بغزارة حتى طاح بثقله على الأرض.. ولم يعد ذلك الشاب القوي قويًّا ولا وسيماً.. ولم تسكت الهمهمات حتى توقف الجسد عن الارتعاش وكأنه شاة أفرغت الدماء من جوفها.. ساد صمتٌ فجأة.. وتوقفت الرياح عن الصرير.

سكت كل شيء.. وبدأت أصوات أقدام الساكنين بالجوار بالاقتراب شيئًا فشيئًا.. حتى تجمهروا على جثته الهامدة على الأرض.. غارقًا في دمائه.. واقفين صامتين، ولا تعلو وجوههم سوى دهشة عظيمة.

–60–

أيلول 1933 ـ العاصمة السويسرية «برن»

وصل الملك فيصل الأول إلى العاصمة السويسرية «برن» طلبًا للاستشفاء.. حيث كان التعب باديًا عليه.. شاحب الوجه، منهك القوة.. نزل في فندق "Bellevue" الفخم الذي يطل على بحر «الآر»..

وبالرغم من وضعه الصحي الحرج إلا أنه طلب أن يقابل الصحفيين، حيثُ كان يريد توضيح حقائق عن قمع ثورة الآشوريين على يد «بكر صدقي».

قلق ومنفعل، ولم تخلُ تصريحاته من شدة اللهجة، وضرب اليد بقوّة على الطاولة أثناء اشتداد انفعاله وهو يدلي بالتصريحات للصحفيين.. وحينها كان الملك قد تلقى سيلًا من التهديدات من قبل الحكومة البريطانية بسبب قمع الحكومة العراقية للثورة الآشورية.

قضى الملك 3 أيام من التعب والإرهاق الذي تزايد عليه، وتردّت حالته الصحية.. وفي 7 أيلول وعندما أصيب الملك بآلام حادّة في بطنه، حضر على عجل طبيبهُ الخاص وحقنهُ بحقنة تحت الجلد، فأحسّ الملك بنوع من الراحة، وتدهورت صحته بعد منتصف الليل.

كان «نوري السعيد» و «رستم حيدر» و «تحسين قدري» حاضرين ويشهدون الملك وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة وقال آخر ما قال:

ـ أنا مرتاح لقد قمت بواجبي وخدمت الأمة بكل قواي، ليسير الشعب بعدي بقوة واتحاد.

«ثم شهق شهقته الأخيرة».

وثارت الشكوك عندما ذكر التقرير الطبي أن سبب الوفاة ناجم عن انسداد الشرايين الذي يسبب آلامًا شديدة في الصدر، بينما الملك كان يُعاني ليلتها من آلام شديدة في البطن.

في أيلول 1933: تم تتويج الملك غازي ملكًا على العراق بصفته وليًّا للعهد رغم محاولات نوري السعيد إقناع رئيس الوزراء «رشيد عالي الكيلاني» باستبعاد الأمير غازي لأنّهُ متخلف عقليًّا «حسب ادعائه» ولا يصلح لتولي المُلك، ودعوة الأمير «زيد» لتولي المُلك.

بعد شــهور من وصوله إلى إيران.. اغتبط السيد لوفاة الملك ولكن تولي الملك غازي الحكم أثار ضغينتــه وأجل رجوعه الذي كان يحلم به.. في حين كانت المرجعيات تهيئ له مقومات الزعامة، ولم يثنهم الشــاه وعداؤه لرجال الدّين عن الســير قدمًا لتحقيق مخططهم.. فتحرّك السيد سامي لنشر مبادئه الجديدة بين الناس وتصدير ظاهرة عدم الاستقرار إلى العراق.

* * * * * *

بينما يبعثون الناس إلى النجف.. والاستمرار بتسريب الدّس السياسي إلى بغداد تحــت غطاء الدّين، حتى انفجر العصيان ضد الحكومة مرة أخرى أرجعت الأوضاع إلى ما قبل ثورة 1920.. واستمروا بتحدّي الحكومة حتــى اصطدموا بالجيش الــذي يقوده «بكر صدقي» بالشــيخ «خوام» فقضى على الحركة التي يتزعمها بسهولة.

أما السيد ســامي فحاصره تهديد جماعات وأنصار السيد الحسيني الذين شــكّوا بمقتله وضلوع الســيد في الجريمة.. ولم يكن بدوره مهتمًّا لذلك الهراء كما كان يســميه.. بل بلغ الغرور به أن يرفض التفاوض مع أنصار الحسيني والبدء بالنيل منهم بالبطش والغدر بهم.

–63–

كان الوقت بعد منتصف الليل عندما عاد إلى الدار من ســهرته المعتادة مع بعض الشــخصيات.. دخل حجرته وألقى عباءته عــلى الكرسي فوقف قليلًا يتأمل في الظلام.. وكأنه يردد صلاة صامتة.. لم ينتبه بأن شبحًا يحمل خنجرًا يختبئ خلف الستار.. قبل أن يتحرك نحو السيد حطّ يده على فمه وشدّ رأسه إلى الوراء ووضع باليد الأخرى الخنجر على قصبته الهوائية.. كان يطلق سبّةً في أذنه.. قبل أن يذوب النصل في رقبة السيد ويخرّ على الأرض وتُنحر رقبته.. كان القاتل لا يزال قابضًا بيمناه بإحكام على الخنجر المصقول بالدم وببلادة أخذ يردد:

ـ سيد!.. يا قذر.

كان القاتل يتنفس بسرعة ويرتجف قبل أن ينســل من الشــباك المفتوح ظِلّ كلب أسود.. التقطت أذناه الدمدمة الخفيضة للغاية الأدنى من زمجرة.. كتهديد هامس.. لا يكاد يُسمع.. حتى وثب الكلب الشبح ليُطبق بفكّيه على عنقه مقتلعًا نصف حلق القاتل.. فاختنقت صرخات الرجل وتناثرت دماؤه على الجدران كالمطر الدافئ..

تألّقــت عينا الكلب في الحجرة المظلمة بفكّين أحمرين مبتلين قبل أن يثب من الشباك إلى حيث أتى..

تاركًا رجلين مخضبيْن بالدماء على الأرض.

تجدون المؤلفات الكاملة للروائي رياض القاضي على أمازون

"RIYAD AL KADI'S" BOOKS ON AMZON

❋❋❋❋❋❋

- الصرخة «سموم وادي الأفاعي»/ رواية
- نسرين أبجدية العشق/ ديوان شعر
- نسرين/ خواطر
- نسرين/ مجموعة قصصية
- الحريق والرماد/ ديوان شعر
- حواء/ خواطر
- عصر النساء/ خواطر
- قارئة الفنجان/ خواطر
- كهرمانة والغزاة/ خواطر
- من يوميات رجل حزين/ خواطر
- قصائد ثائرة/ شعر
- نساء على كف الرب/ شعر
- أبجدية الحب/ ديوان شعر
- نسرينيات/ ديوان شعر
- إسطنبول/ خواطر
- اعترافات الحب/ خواطر
- المجزرة / خواطر وأشعار
- الوهم/ خواطر
- بغداد/ ديوان شعر وخواطر
- تأملات/ خواطر